

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هذه الأُمَّة إلاّ ما أَصْلَحَ أَوَّلَها

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة السابعة. العدد السابع والثلاثون: رمضان/شوال 1434هـ الموافق لـ جويلية/أوت 2013م

الحياة النافعة



متى تقع الفتنة ؟



تسميات لا أصل لها في الحج والعمرة

صديق أوبيش

تنوير الفهوم بشرح اسم الله القيوم

عز الدين مارير



الشوق إلى رؤية النبي عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام

د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN. 1112. 6825

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ آل عِمرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سُورَةُ الأحزَاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.



مجلة جامعة
تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



المدير
توفيق عمروني

رئيس التحرير
عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:
عمر الحاج مسعود
عثمان عيسي
نجيب جلواح
د.رضا بوشامة

التصميم والإخراج الفني:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الطباعة:
مطبعة الديوان

عنوان المجلة:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.
المحمدية. الجزائر

الهاتف والفاكس:
(021) 51 94 63

النقال: (0559) 06 99 92

التوزيع (جوال): (0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:
www.rayatalislah.com



افتتاحية



الحياة النافعة

مدير المجلة

إنَّ الحياةَ الرَّغيدة في ظنٍّ كثيرٍ من النَّاس هي في الاستجابة لداعي الهوى والنَّفس وتحقيق رغباتها ولو على حسَاب ما تدعو إليه الدِّيانة أو يستوجبه العقل والصِّيانة، إلاَّ أنَّ هذا الظَّنَّ متبدِّدٌ عند مَن يتمسَّكُ بالوحي؛ لإدراكه أنَّ الحياةَ النافعة الحقيقيَّةَ إنَّما هي في الاستجابة والانقياد لله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ فحياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الله والرسول ﷺ من العلم والإيمان.

ومنَ المعلوم قطعًا أنَّ مَن لم يستَجب للرَّسول ﷺ، فهو مستَجيبٌ لهوى نفسه، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾؛ فمَن ظهرت له السُّنَّة وعَدَل عنها إلى غيرها، واعترض عليها بعقله ورأيه أو بذوقه ووجده أو بسياسته ونظره فقد اتَّبع هواه، وهو على خطر عظيم، وعلى طريق غير مستقيم، ذلك لأنَّ الهوى يهوي بصاحبه إلى السُّفول؛ وهو ـ كما قيل ـ: ثلاثةُ أرباع الهوَان، وهو شارعُ النَّار الأكبر كمَا أنَّ مخالفته شارعُ الجنَّة الأعظم؛ قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

إنَّ النَّاظر في سير السَّلف الصَّالح سيقف على أمور عجب في سُرعة استجابتهم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ؛ كموقف الصَّحابة رضي الله عنهم يومَ نزول آية تحريم الخَمر، وكموقف الصَّحابيات الطَّاهرات رضي الله عنهنَّ يوم نزلت آية الحجاب، فلا اعتراضَ ولا تردُّد ولا تلكُّؤ في تنفيذ الأمر، وهذا أسلوبُهم مع كلِّ أمرٍ أمَرَ به الرَّسول ﷺ، والَّذي حملهم على ذلك قوَّة يقينهم بصدقه ﷺ، ما أورثهم قوَّةَ التَّسليم وسُرعةَ الاستجابة، فكمُلت حياتُهم وطابت نفوسهم؛ قال ابن القيِّم رحمه الله في «الفوائد» (ص 127): «إنَّ الحيَاةَ النَّافعةَ إنَّمَا تحصُل بالاستجابة لله ورَسُوله؛ فَمَن لم تحصُل لهُ هَذه الاستجابةُ فَلا حَيَاةَ لهُ، وإن كَانَت لَهُ حَيَاةٌ بهيميَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَينه وبَين أرذل الحيَوانَات؛ فالحياة الحَقيقيَّة الطَّيِّبَة هيَ حيَاةُ مَن اسْتَجَابَ لله والرَّسُول ظَاهرًا وبَاطنًا، فَهؤُلاء هُم الأَحْيَاء وإن ماتُوا وغيرهم أمواتٌ وَإن كَانُوا أَحيَاءَ الأَبدَان.

ولهَذَا كَانَ أكملُ النَّاس حَيَاة أكمَلَهم استجابةً لدَعوَة الرَّسُول؛ فَإنَّ كلَّ مَا دعَا إليه فَفيه الحيَاةُ، فمَن فَاتَهُ جُزءٌ منهُ فَاتَهُ جُزءٌ منَ الحيَاة، وفيه منَ الحيَاة بحَسَب مَا اسْتَجَابَ للرَّسُول ﷺ».

في هذا العدد

متى تقع الفتنة؟



من مزالق المحققين
تحقيق عنوان الكتاب - نموذجا

العدد السابق




تاريخ وسير

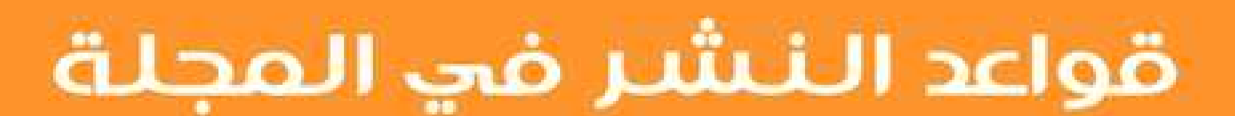
الشوق إلى رؤية النبيّ عليه الصلاة والسلام




ألفاظ ومفاهيم في الميزان

تسميات لا أصل لها في الحج والعمرة

تسميات لا أصل لها
في الحج والعمرة



- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

الافتتاحية

متى تقع الفتنة ؟

■ التحرير

إنَّ اجتنابَ الفتَن والابتعاد عنها غايةُ كلِّ موفَّقٍ ناصحٍ لنفسه، فـ«إنَّ السَّعيد لمن جُنِّب الفتَن». كما قـال ﷺ مردِّدًا ثلاث مرَّاتٍ. [رواه أبوداود (4263)]، وهذا ما يدعـو العاقل إلى البحثَ عن سبَب وقوع الفتنَة لينأى عنه، ويحتمي من التَّلبُّس به؛ ولشيخ الإسلام رحمه الله كلمةٌ مضيئةٌ يحسُنُ إيرادهـا كإجابة شـافيةٍ جامعة عن هذا السُّـؤال حيثُ يقول في كتَاب «الاستقامة» (39/1): «ولا تقـعُ فتْنَـةٌ إلاَّ من تَرْك ما أمَـر الله به؛ فإنَّه. سُـبحانَهُ. أمَر بالحقِّ وأمَـر بالصَّـبرِ؛ فالفتنَـةُ: إمَّـا من تركِ الحقِّ، وإمَّا من تركِ الصَّبر»

وإنَّ النَّاظر فيمَا يجري اليوم في بعض البـلاد من اختـلال واضـطراب، يدركُ بأدنَى تأمُّل أنَّ كثيرًا منَ هؤلاء المتنازعين أو المنازعين مقصِّرٌ في معرفَة الحقِّ الَّذي أمَـرَ الله تعـالى بـه، أو تاركٌ للصَّـبر في موطنٍ لا يحسُنُ فيه إلاَّ الصَّبر.

ومَـنَ المقطوع بـه أنَّ ما يحـرِّك هذه الفتَن هُـو الظُّـلم الواقـعُ؛ والقاعـدةُ الشَّـرعيَّة أنَّ الظُّلم مأذونٌ بدفعه ورفعه؛ ولكـن بشَـرط القُـدرة علـى ذَلـك؛ وألاَّ يُفضي إلى عُدوان وشرٍّ زائد.

فالمظلـومُ. وإن كانَ محقًّـا. ليسَ له أن يدفَـع الظُّلم عن نفسـه بـكلِّ ممكن، بخاصَّـة إذا كان في دفعه إثارةٌ للفتْنَة بَينَ الأمَّة وجلبٌ لشَـرٍّ أعظمَ مـن ظلمه الَّذي حلَّ بـه؛ بل يؤمَـر بلزوم الصَّـبْر، ويكونُ ذلكَ في حَقِّه محنةً واختبارًا.

وإنَّ إهمـال هذَيْـن الشَّـرطين دليـلٌ واضـحٌ على قلَّـة العلم وضـعف الـرَّأي، وشـدَّة الجزَع وضَـعْف الصَّـبر؛ وبسبَب هذا الإهمال يُجرُّ النَّاس إلى فتن عظيمة وعواقـبَ وخيمَة، فتُزهـق الأنفُس وتُهدر الدِّمـاء، وتُنتَهـك الأعراض، وتُسلبُ الأمـوال والممتلَكَات، ويعتـدَى فيها على الأبريـاء، وتحلُّ الفوضَـى بـدل النِّظام، والخَـوف بـدَل الأمـن، والتَّنابـز بـدَل التَّآخـي، ويجري من الأمـور ما لا يخطر على بال ولا في خيال، وإنَّه لو كانت الحكمةُ غالبـةً على العُقول لوُضـعت الأشـياء في مواضـعها، ونُزِّل كلُّ أحد منزلتَه اللاَّئقة بـه لا ينزلُ عنهـا ولا يتَعدَّاها، وعرفَ كلُّ واحد وظيفتَه وحدودَه المناسـبَة له، وهذا هو الأمر الرَّشَد الَّذي فقَدته هذه الجمُوع المتظاهـرة، وهذه الحشـود المعتَصـمة، وهـذه الأحزاب المضـطَربة؛ فلو أُسلمَت القيـادةُ للعُلماء الرَّبَّانيِّين الرَّاسـخين في العلـم على طريقَة السَّـلف، . لا أنصـافَ العُلماء وأشباهَ الفُقَهاء . لكان للنَّاس شأنٌ آخَر ومسـلكٌ مُغاير، ولاستنارت الطَّريقُ ووضَح السَّـبيل والمخرَج؛ ذلك لأنَّ هؤلاء العُلمـاء لا تسـتفزُّ أعصـابَهم الظُّـروف والأحدَاث، ولا يحرِّكهم الشَّبابُ الصِّغار الأحـدَاث، ولا تخدعُهـم كـثرة الجُمـوع والاحتشـاد، ولا يسـتَثيرهُم الإعـلام العلمَـاني الحاقـد بمـا ينشـره من كذب وأضـاليل وإفسـاد، ولا يبنـون مواقفَهـم علـى ردَّة فعـل أو اسـتجابة لانفعـال، بل لا يصـدُرون في أحكامهـم إلاَّ عـن علـم ورويَّةٍ، وهم ثابتون متثبِّتون، لا يصـرفُهم عـن وظيفتهم النَّبيلة صـارفٌ ولا طارئ، وهي تعليم النَّاس وتوجيههم وإرشادهم، وحملهم علـى العَمل بدينهم الصَّـحيح، بعيدًا عن الحزبيَّات الضَّيِّقة والعصبيَّات المَقيتَـة؛ قـال الشَّـيخ الإبراهيمـي رحمه الله: «فإذَا وجـدَت الأمَّة هذه القيـادَة الَّتي لا يسفهُ في يدها زمامٌ، ولا تضطَرب مَقادَةٌ، وجَـدَت نفسَـها، ومَن وجَـدَ نفسَـه وجَدَ الحقيقَة» [«الآثار» (56/3)].

وأوَّل مَن يُـدرك الحقَّ والحقيقةَ على

الطليعة

وجهها، هو العالمُ المستَضيء بنُور الوحي؛ لأنَّه لا يميِّز بينَ الخَير والشَّرِّ فحَسب؛ بل يميِّز بين الخَيرَيْن فيقدِّم أخيَرَهُما، وبينَ الشَّرَّين فيُؤثِر أخفَّهما؛ ولا يبني أمرَه إلاَّ على العلم الصَّحيح والنَّظر السَّديد، يقرأ للأمور عواقبَها، وللأفعال مآلاتها، فيدرَأ الفتنةَ قبلَ وقوعِها، ولا يتَحرَّك انتقامًا لطائفة أو حزب، ولا طلبًا لمنصب أو رئاسة، ولا حرصًا على محمَدة، وإنَّما همُّه صنيعةُ المعرُوف والنُّصح لأمَّته، ودفع المفسدة ورفع الحرَج عنها ما استَطاع إلى ذلك سَبيلا.

وقد حفظ التَّاريخُ جميلَ صنيعِ الحسَن بن عليٍّ رضي الله عنهما حين خلعَ نفسَه عن الخلافة ـ وهُو لها أهلٌ وبها أولى ـ وصالَحَ معاويةَ رضي الله عنه عامَ الجماعَة، واجتَمع النَّاسُ على إمام واحد بعد فُرقة، فكانَ سيِّدًا بحقٍّ كما وصفَه جدُّه ﷺ بقوله: «إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ» [رواه البخاري (2704)].

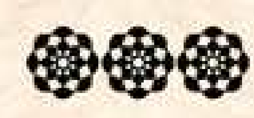
أمَّا من قلَّ علمُه وفقهُه من العامَّة من أصحابه رضي الله عنه فكانوا يقُولون له: يا عارَ المؤمنين؛ فيقُولُ لهم: «العَارُ خيرٌ من النَّار» يعني بذلك عار الدُّنيا خيرٌ من نار جهنَّم؛ وقال له آخرونَ: يا مُذلَّ المؤمنين؛ فقال: إنِّي لم أُذلَّهُم، ولكنِّي كرهتُ أن أقتُلَهم في طَلب المُلك».

هذا هُو عقلُ العالم المتمسِّك بالوحيَيْن الَّذي يُحكِمُ فقهَ المصالح إذا تعارضَت، والمفاسد إذا تدافَعت، فيدفعُ المفسدةَ الكبرى بالصُّغرى، وقَد يحكُمُ عليه الأغمَار الَّذين لم يشمُّوا رائحةَ الفقه والنَّظر بأنَّه تَخاذُلٌ أو تقاعُسٌ، فلا يلتفتُ إلى مَن أسلمَ عقلَه لعاطفته وهواه؛ ولم يجعل الشَّريعة لجامًا لكلِّ تصرُّفاته.

ولا ريبَ أنَّ العالمَ الملمَّ بسيرة سيِّد المُرسلين ﷺ إذا قلَّبَ فيها النَّظر، وجَد نماذجَ من هذا الفقه العَظيم وهُو فقهُ التَّعامل مع المُناوئين وتقدير الأمُور حقَّ قَدرها بعيدًا عن العَواطف الجيَّاشة والحمَاسَات الفَارغة، وسيَقفُ على مواقف كثيرة لكنَّ أجلبَها للنَّظر وأعظمَها أثرًا حادثةُ صُلح الحُديبيَّة، فهو نموذجٌ راقٍ في تحقيق مصَالح عُظمى وإن صاحَبَ ذلكَ شيءٌ ممَّا لم يظهر للرَّائي من أوَّل وهلة، وخفيَ عليه ما فيه من العاقبة الحسَنة، والنِّهاية الحميدَة، والثِّمار اليانعَة.

فلا أسلمَ إذًا منَ التَّعلُّق بالعلم وأهله لمعرفة الحقِّ والوصُول إليه، ثمَّ حمل النَّفس على الصَّبر على العَمل بهذا الحقِّ، كي لا يقع العبد في مخالفة أمر الوحي، فيكون بذلك ناجيًا من الفتنة ولا متسبِّب في وقوعها؛ قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة النور].

جنَّبنا اللهُ الفتنَ ودُعاتها، وأصناف الشُّرور كلِّها.



مسائل في قول الله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾... الآية

عبد الرَّحمن بن علي العسكر
المملكة العربيَّة السُّعودية

يقول الله سبحانه وتعالى في ختام آيات الحجِّ في سورة البقرة: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البقرة]، وقد استوقفني فيها عدَّة مسائل تحتاج إلى استيضاح، لورود استشكال بعض الحجَّاج عليها، أو فهمهم لها على غير الوجه الصَّحيح في تفسيرها.

فمن ذلك اعتقاد بعضهم أنَّ الحجَّ ينتهي بانتهاء اليوم الحادي عشر؛ لأنَّ الله سبحانه أمر بذكره في الأيَّام المعدودات وهي: يوم العيد وأيَّام التَّشريق، ثمَّ أذن بالانصراف في يومين وهما يوم العيد واليوم الحادي العشر، فبانتهائهما ينتهي الحجُّ.

ومن ذلك ظنُّ بعضهم أنَّ اشتراط التَّقوى في الآية دليل على أفضليَّة التَّأخُّر إلى اليوم الثَّالث عشر على التَّعجُّل في اليوم الثَّاني عشر، ففي التَّأخر زيادة تقوى.

ومن ذلك ما يوهمه رفع الإثم في الآية مع أنَّها جاءت في ذكر فعل مأمور به، وليست في الإذن بترك فعل أو في فعل أمرٍ كان محظورًا.

وحتَّى يكون إيضاح وجه الصَّواب في هذه الآية كاملًا؛ فقد رأيت الحديث عنها في خمس مسائل:

المسألة الأولى

معنى الأيَّام المعدودات الواردة في الآية: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾:

اختلف العلماء في بيان معنى الأيَّام المعدودات الواردة في الآية مع اتِّفاقهم على أنَّها أيَّام التَّشريق، وهي اليوم الحادي عشر والثَّاني عشر والثَّالث عشر، لكنَّ خلافهم في يوم العيد هل يدخل فيها أم لا؟ إذ ينبني على الخلاف في هذا التَّفسير معنى التَّعجل الَّذي ذكره الله تعالى، مع أنَّ الرَّازي حكى الاتِّفاق على أنَّها أيَّام التَّشريق[1]، ولعلَّ ذلك من رؤيته ضعف القول الثَّاني القائل بدخول يوم العيد فيها.

وقد لخَّص ابن رجب رحمه الله الخلاف في ذلك بقوله: «وأمَّا الأيَّام المعدودات: فالجمهور على أنَّها أيَّام التَّشريق، ورُوِيَ عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما.

واستدل ابن عمر بقوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾، وإنَّما يكون التَّعجيل في ثاني أيَّام التَّشريق، قال الإمام أحمد: «ما أحسن ما قال ابن عمر».

وقد رُوِيَ عن ابن عبَّاس وعطاء أنَّها أربعة أيَّام: يوم النَّحر، وثلاثة بعده.

وفي إسناد المرويِّ عن ابن عبَّاس ضعف» اهـ[2].

وأقوى ما اسْتُدِلَّ به لقول الجمهور بأنَّ الأيَّام المعدودات هي أيَّام التَّشريق فقط: قول النَّبيِّ ﷺ: «أيَّام منًى ثلاثة، ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ﴾» خرَّجه أهل «السُّنن الأربعة» من حديث عبد الرَّحمن ابن يعمر، عن النَّبيِّ ﷺ[3]، قال ابن رجب: «وهذا صريح في أنَّها أيَّام التَّشريق» اهـ[4].

وبهذا يظهر أنَّ القول بأنَّ يوم النَّحر داخل في الأيَّام المعدودات قولٌ ضعيف لا يعتمد عليه، فلا عبرةَ بما يعتقده بعضهم من أنَّ المقصودَ بالتَّعجُّل الوارد في الآية أنَّه المُضِيُّ يوم الحادي عشر.

المسألة الثانية

معنى رفع الإثم الوارد في الآية:

يقول الله سبحانه بعد أن أمر بذكره في أيَّام التَّشريق: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ

(1) «التَّفسير الكبير» للرَّازي (5/340).

(2) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن رجب (6/110، 112).

(3) رواه التِّرمذي (889) وأبو داود (1949) والنَّسائي (3044) وابن ماجه (3015).

(4) «لطائف المعارف» (ص501).

﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾، فهل طَرْحُ الله الإثم عن المتعجِّل وعن المتأخِّر معناه أنَّه لا حرج عليهما في فعلهما؟ فكيف يكون ذلك و«الحرج إنَّما يُوضَعُ عن العامل فيما كان عليه تركُ عمله فيُرَخَّصَ له في عمله بوضع الحرج عنه في عمله، أو فيما كان عليه عملُه، فيُرَخَّصَ له في تركه بوضع الحرج عنه في تركه؛ فأمَّا ما على العامل عملُه فلا وجه لوضع الحرج عنه فيه إن هو عمِلَه، وفرضه عملُه؛ لأنَّه محالٌ أن يكون المُؤَدِّي فرضًا عليه حرجًا بأدائه، فيجوز أن يقال: قد وضعنا عنك فيه الحرج»[5].

ثمَّ لو سلَّمنا برفع الإثم عن المتعجِّل فإنَّ المتأخِّر زاد عملاً فكيف يُرْفَعُ عنه الإثم - أيضًا - وهو قد استوفى كلَّ ما يلزمه في الحجِّ؟

وهذا الموضع - وهو معنى طرح الإثم هنا - اختلف فيه العلماء على عدَّة أقوال، ذكرها بتفصيلها الإمام الطَّبري في «التَّفسير» مستدلاً لكلِّ قول، يطول الكلام بذكرها هنا، ثمَّ ذكر القول الرَّاجح فيها فقال: «وأولى هذه الأقوال بالصِّحَّة قول من قال: تأويل ذلك: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ من أيَّام منًى الثَّلاثة فنفر في اليوم الثَّاني فلا إثم عليه، لحطِّ الله ذنوبَه، إن كان قد اتَّقى الله في حجِّه فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه وفعل فيه ما أمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلَّفه من حدوده، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ إلى اليوم الثَّالث منهنَّ فلم ينفر إلى النَّفر الثَّاني حتَّى نفر من غد النَّفر الأوَّل، ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ لتكفير الله له ما سلف من آثامه وأجرامه، إن كان اتَّقى الله في حجِّه بأدائه بحدوده»[6].

فمعنى طرح الإثم هو مغفرة الذَّنب وزوال الآثام السَّابقة عنه، وذلك يماثل قول النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[7]، وقوله ﷺ: «تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ»[8].

فمعنى قوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أنَّه خارجٌ من ذنوبه، محطوطةٌ عنه آثامه، مغفورةٌ له أجرامه.

لكن يورَد هنا استفهام وهو: ما الحكمة من تكرار نفي الإثم للمتعجِّل والمتأخِّر، فكان يكفي أن يذكر مرَّةً واحدةً؟

اجتهد العلماء في بيان الحكمة من ذلك حتَّى قال بعضهم: «إنَّ أهل الجاهليَّة كان يؤثِّم المتعجِّلُ المتأخِّرَ، فأراد الله بيان أن لا إثم على كلا النَّوعين»، وبعضهم قال - وهو الواحدي -: «لتكون اللَّفظة الأولى موافقةً للثَّانية، كقوله سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: 40]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 194]، ونحن نعلم أنَّ جزاء السَّيِّئة والعدوان ليس بسيِّئة ولا بعدوان، فإذا حُمِلَ على موافقة اللَّفظ ما لا يصحُّ في المعنى، فلأَنْ يُحْمَلَ على موافقة اللَّفظ ما يصحُّ في المعنى أولى؛ لأنَّ المبرور المأجور يصحُّ في المعنى نفي الإثم عنه»[9].

إلى غير ذلك من الأقوال، لكنَّ المعنى الَّذي رجَّحه الطَّبري وجمعٌ من المفسِّرين كافٍ في بيان الحكمة وهو التَّأكيد على مغفرة الذُّنوب للمتعجِّل والمتأخِّر.

المسألة الثالثة

المراد بالتَّقوى في قوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، وهل تعود للمتعجِّل أم للمتأخِّر أم لهما جميعًا؟

إذا اتَّضح معنى رفع الإثم الوارد في الآية، وهو مغفرة ذنوب الحاجِّ، فإنَّ الله سبحانه ربط ذلك بتوفُّر شرط التَّقوى في كلا الحالتين: التَّعجُّل والتَّأخُّر.

وذلك على مثال قوله ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»، فربط رجوعه من الحجِّ بدون ذنوب بأن لا يرفث ولا يفسق، فالتَّقوى هنا شرط للمتعجِّل والمتأخِّر كي يقبل حجُّه.

وأمَّا معنى التَّقوى هنا فقد ذكر العلماء في معناها عدَّةَ وجوه:

أحدها: أنَّ الحاجَّ يرجع مغفورًا له بشرط أن يتَّقي الله فيما بقي من عمره ولم يرتكب ما يستوجب به العذاب، ومعناه التَّحذير من الاتِّكال على ما سلف من أعمال الحجِّ، فبيَّن تعالى أنَّ عليهم مع ذلك ملازمةَ التَّقوى ومجانبةَ الاغترار بالحجِّ السَّابق.

وثانيها: أنَّ هذه المغفرة إنَّما تحصل لمن كان متَّقيًا قبل حجِّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]، وحقيقته أنَّ المصرَّ على الذَّنب لا ينفعه حجُّه وإن كان قد أدَّى الفرض في الظَّاهر.

(5) «جامع البيان» لابن جرير الطَّبري (3/567-568).

(6) المرجع السَّابق (3/565-566)، وذكرها عنه جمع من المفسِّرين، واكتفى الشِّنقيطي رحمه الله بذكر كلام الطَّبري في التَّرجيح لهذا التَّفسير مؤيِّدًا له؛ لأنَّه هو الَّذي تدلُّ عليه الآيات والأحاديث «أضواء البيان» (5/133).

(7) رواه البخاري (1820) ومسلم (1350).

(8) رواه التِّرمذي (810) والنَّسائي (2630).

(9) «التَّفسير الكبير» للرَّازي (3/212).

وثالثها: أنَّ هذه المغفرة إنَّما تحصل لمن كان متَّقيًا عن جميع المحظورات حال اشتغاله بالحجِّ، كما قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ»، ومن ذلك قول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: «من اتَّقى في حجِّه غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»[10].

وثمَّة وجوهٌ ذُكِرَتْ في تفسيرها لكنَّها وجوه ضعيفةٌ، منها قول بعضهم: «إنَّ المقصود إن اتَّقى قتلَ الصَّيد في حجِّه» وإن كانت كلُّ تلك الوجوه الثَّلاثة السَّابقة جائزةً في المعنى، إلاَّ أنَّ الوجهَ الثَّالث هو أقربها، لموافقته ما ذكرناه في معنى حطِّ الإثم عن الحاجِّ الوارد في الآية والحديث.

ولذلك قال الطَّبري: «فإنْ قال لنا قائلٌ: ما الجالب اللاَّم في قوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ وما معناها؟ قيل: الجالب لها معنى قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ لأنَّ في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ معنى حططنا ذنوبه، وكفَّرنا آثامه، فكان في ذلك معنى: جعلنا تكفير الذُّنوب لمن اتَّقى الله في حجِّه، فترك ذكر «جعلنا تكفير الذُّنوب» اكتفاءً بدلالة قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾»[11].

المسألة الرَّابعة
الحكمة من تكرار الأمر بالتَّقوى:

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فهو أمر في المستقبل، وهو مغاير لقوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الَّذي أريد به الماضي، فليس ذلك بتكرار؛ لأنَّ التَّقوى الأولى متعلِّقةٌ بما مضى خلال أدائه مناسك حجِّه، فإذا انتهى من حجِّه فإنَّ عليه ملازمةَ التَّقوى، ولا يكون آخرُ عهده بمراقبة الله انتهاءَ النُّسك.

وهذا المعنى ـ وهو أمر الله بمراقبته وذكره بعد الفراغ من العبادة ـ ورد الأمر به في غير الحجِّ ـ أيضًا ـ، كالصَّلاة في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النِّساء: 103]، وفي الصِّيام ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185]، والمقصود منها أنَّ المؤمنَ يكون مرتبطًا بربِّه مراقبًا له ذاكرًا حامدًا له سبحانه في كلِّ وقت وحين، وليس ذلك مرتبطًا بالعبادات المفروضات.

والتَّقوى هي فعل الواجبات وترك المحرَّمات، فكما أنَّ الحاجَّ التزم أثناء أداء النُّسك بفعل الواجبات وترك المحرَّمات عليه في حجِّه؛ فإنَّه ينبغي أن يستمرَّ على ذلك حتَّى بعد انتهاء نسكه.

المسألة الخامسة
ختم الآية بالحشر يوم القيامة:

لمَّا انتهى الله سبحانه من بيان أحكام الحجِّ، وبيَّن أجر المتعجِّل والمتأخِّر، وأمر الحاجَّ بتقوى الله في كلِّ وقت وحين قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، ليتأكَّد عند المؤمن أمران:

× **الأوَّل:** التَّأكيد على الأمر بالتَّقوى، والتَّشديد فيه؛ لأنَّ من تصوَّر أنَّه لا بدَّ من حشر ومحاسبة ومساءلة، وأنَّ بعد الموت لا دارَ إلاَّ الجنَّةً أو النَّار، صار ذلك من أقوى الدَّواعي له إلى التَّقوى.

الثَّاني: أنَّ جميع أفعال الحاجِّ من بداية تلبُّسه بالنُّسك إلى انتهائه مُذَكِّرٌ بيوم الحشر، قال البقاعي في «تفسيره»: «ولمَّا كان الحجُّ حشرًا في الدُّنيا والانصراف منه يشبه انصرافَ أهل الموقف بعد الحشر عن الدُّنيا فريقًا إلى الجنَّة وفريقًا إلى السَّعير ذكَّرَهُمْ بذلك بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾ جميعًا ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾ بعد البعث، والحشر الجمع بكُرْه، وهو واقع على أوَّل خروجهم من الأجداث إلى انتهاء الموقف، فأُعلموا لما يكون سببًا في انصرافهم منه إلى دار كرامته لا إلى دار إهانته، قال الحرالي: وكلِّيَّة الحجِّ ومناسكه مطابقٌ في الاعتبار لأمر يوم الحشر ومواقفه؛ من خروج الحاجِّ من وطنه متزوِّدًا كخروج الميِّت من الدُّنيا متزوِّدًا بزاد العمل، ووصوله إلى الميقات وإهلاله متجرِّدًا كانبعاثه من القبر متعرِّيًا، وتلبيته في حجِّه كتلبيته في حشره ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: 8]، كذلك اعتباره موطنًا إلى غاية الإفاضة والحلول بحَرَم الله في الآخرة الَّتي هي الجنَّة، والشُّرب من ماء زمزم الَّتي هي آيةُ نُزُلِ الله لأهل الجنَّة، على وجوه من الاعتبارات يطالعها أهل الفهم واليقين، فلأجل ذلك كان أتمَّ ختمٍ لأحكام الحج ذكرُ الحشر». اهـ[12].

وبهذه المسائل الموجزة يظهر كثيرٌ من الأمور الَّتي قد تشكل على من يقرأ هذه الآية الكريمة، فأسأل الله للجميع قبول العمل، كما أسأله أن يتمَّ علينا قبوله يوم الحشر عليه يوم القيامة، والله وليُّ التَّوفيق.

❁❁❁

(10) ذكر أثر ابن مسعود الطَّبري في «جامع البيان» (565/3).

(11) «جامع البيان» (570/3).

(12) «نظم الدُّرر» للبقاعي (307/1).

شرح حديث حذيفة رضي الله عنه في الفتن

■ أ.د.عبد الرحمن محيي الدين
رئيس قسم فقه السنة بالجامعة الإسلامية سابقا



حديث حذيفة في الفتن حديث عظيم في بابه، وهو في مسيرة حياة الأمَّة الإسلاميَّة وما يعترضها من فتن، وكيفيَّة النَّجاة والمخرج منها إلى أن تقوم السَّاعة، وهو في «الصَّحيحين»، وله روايات أخرى في غيرهما، وفيها زيادات، جمعها وصحَّحها الشَّيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ، كما في «سلسلته الصَّحيحة» (2739).

عن أبي إدريس الخولاني أنَّه سمع حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنَّا كنَّا في جاهليَّة وشرٍّ فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: «**نَعَمْ**»، فقلت: وهل بعد ذلك الشَّرِّ من خير؟ قال: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**»، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: «**نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، قلت: يا رسول الله! صفهم لنا، قال: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»، قلت: يا رسول الله! فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**».

وأما ما أورده الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ كما في «السِّلسلة الصَّحيحة» - وفيه زيادات -، فعن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنَّا كنَّا في جاهليَّة وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير فنحن فيه، وجاء بك، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ كما كان قبله؟ قال: «**يَا حُذَيْفَةُ! تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ**» ثلاث مرَّات، قال: قلت: يا رسول الله! أبعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: «**نعم**»، قلت: فما العصمة منه؟ قال: «**السَّيفُ**»، قلت: وهل بعد ذلك الشَّرِّ من خير؟ - وفي طريق: قلت: وهل بعد السَّيف بقيَّةٌ؟ قال: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**» -، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**»، وفي أخرى: الهدنة على دخن ما هي؟ قال: «**لا تَرْجِعُ قُلُوبُ أَقْوَامٍ عَلَى الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ**» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: «**نَعَمْ، فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ صَمَّاءُ، عَلَيْهَا دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، قلت: يا رسول الله! صفهم لنا، قال: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**» قلت: يا رسول الله! فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، وَتَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»، وفي طريق: «**فَإِنْ تَمُتْ يَا حُذَيْفَةُ! وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ**»، وفي أخرى: «**فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً فَالْزَمْهُ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ، فَإِنْ لَمْ تَرَ خَلِيفَةً فَاهْرُبْ فِي الأَرْضِ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ**»، قال: قلت: ثمَّ ماذا؟ قال: «**يَخْرُجُ الدَّجَّالُ**»، قال: قلت: فبم يجيء؟ قال: «**بِنَهْرٍ - أو قال: مَاءٍ - وَنَارٍ، فَمَنْ دَخَلَ نَهْرَهُ حُطَّ أَجْرُهُ وَوَجَبَ وِزْرُهُ، وَمَنْ دَخَلَ نَارَهُ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وِزْرُهُ**»، قلت: يا رسول الله! فما بعد الدَّجَّال؟ قال: «**عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**»، قلت: ثمَّ ماذا؟ قال: «**لَوْ أَنْتَجْتَ فَرَسًا لَمْ تَرْكَبْ فَلُوَّهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

❁❁❁

من مشكاة السنة

□ قلت: هذا الحديث العظيم من علامات نبوَّة النبي المصطفى ﷺ حيث أخبر عن أمور لم تكن موجودةً ووُجِدَت، وأمور أخرى أخبر عنها وجزم بها وستقع في مسيرة الأمَّة الإسلاميَّة لا محالة، وهذا لا يقوله ويجزم به إلاَّ صادقٌ أمينٌ، ويُسَمَّى هذا بغيب المستقبل؛ حيث إنَّ الغيبَ غيبان، غيب حاضر وغيب مستقبل، وكلاهما لا يعلمه إلاَّ الله، ولا يُطْلِعُ عليه إلاَّ من ارتضى من رسول، كما أخبر ـ جلَّ وعلا ـ عن ذلك بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن]، وهذا ممَّا أخبر الله به نبيَّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، لتحذر أمَّته من الفتن الَّتي ستكون، وهذا من عظم نصحه لأمَّته، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سورة النجم].

❁❁❁

وبداية الحديث والحوار بين حذيفة رضي الله عنه وبين النَّبيِّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدلُّ على صدق إيمان الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، واطمئنان قلوبهم بذلك، وفرحهم بهذا الدِّين العظيم وحفظهم له وتبليغهم له، فحذيفة هاهنا لعظم فرحه بالخير ـ وهو هذا الدِّين دين الإسلام ـ وانشراح صدره بالإيمان والخير، سأل النَّاصح الأمين عمَّا يفعل في الفتن وظهور الشَّرِّ والآثام، فأخبره النَّاصح الأمين، وهو الَّذي ما من خير إلاَّ دلَّ الأمَّة عليه، وما من شرٍّ إلاَّ حذَّرها منه، فجزاه الله أفضل ما جازى نبيا عن أمته ورضي الله عن صحابته الكرام الأمناء.

❁❁❁

ونحن نرى الآن ما أخبر به النَّبيُّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من الشَّرِّ، والدُّعاة على أبواب جهنَّم، وغير ذلك ممَّا سنقف عليه في شرح وبيان هذا الحديث المبارك العظيم.

❁❁❁

فقوله: «فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: «**نعم**»...

قال أهل العلم: هو ما وقع من فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، ثمَّ انفتاح باب الفتن على أمَّة الإسلام بمقتله، وكذا ما حدث في «الجمل» و«صفِّين»، ثمَّ التأم جمع المسلمين على أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه، وهو خيرٌ، لكن ـ كما في الحديث ـ فيه دخن، وهو بداية الدَّخن، وقد بيَّنه في الرِّواية الأخرى بقوله: «**لَا تَرْجِعُ قُلُوبُ أَقْوَامٍ عَلَى الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ**»، أيْ: ممَّا أصابها من الكدر وعدم الصَّفَاءِ؛ حيث كانت قلوبهم على قلب رجل واحد، ثمَّ بدأت بذْرَة الأهواء والفرق الضَّالَّة من الخوارج والتَّشيُّع في الظُّهور، ثمَّ كَثُرَتْ الشُّبُهَات وكثرت الفرق، وظهر صدق قول النَّبيِّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «**سَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**» حيث إنَّ الأصلَ في أمَّة الإسلام أن تكون أمَّةً واحدةً، ولكن لَمَّا ظهرت الأهواء تكدَّرت القلوب، وشاب الإيمانَ خلطٌ؛ حيث إنَّ الإيمان يكون في القلب وتصدِّقه الأعمال، فظهر الكدر بسبب الأهواء.

❁❁❁

قوله: «وما دخنه؟» أي: ما سبب هذا الكدر والدَّخن الَّذي دخل على المسلمين في الإسلام؟ فأخبره النَّبيُّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنَّ سبب ذلك ظهورُ الأهواء والشُّبهات وغلبتها في حياة المسلمين، وذلك بقوله: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي وَيَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**».

فقوله: «**يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي**» الهدى: هو الدَّلالة والإرشاد والبيان، والظَّاهر أنَّهم أئمَّة، أي: يهدون غيرهم وهم على غير هدي النَّبيِّ ﷺ، والرِّواية الأخرى «يَهْتَدُونَ» أي: يسيرون في حياتهم ويقولون ويعملون على غير هدي المصطفى ﷺ، سواء أكانوا أئمَّةً أم أتباعًا، فهم على غير هدى النَّبيِّ ﷺ؛ حيث قال النَّبيُّ ﷺ: «**يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي**»، وذلك إمَّا لجهلهم بهدي النَّبيِّ ﷺ لعنادهم ومكابرتهم، وهؤلاء هم أصحاب البدع والضَّلالات الَّتي ظهرت في الإسلام بسبب الأهواء، ولا تظهر إلاَّ بسبب ذلك؛ وذلك لأنَّ المسلم لا يتكلَّم إلاَّ بعلم من كتاب الله أو سنَّة ثابتة عن رسول الله ﷺ، ويحفظ قلبه ولسانه، لا أن يهتدي ويهدي غيره بغير علم، جهلاً وعنادًا.

وقوله ﷺ: «**وَيَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي**» أخصُّ من الأوَّل؛ حيث إنَّ الهدى هو السَّمت والطَّريقة العامَّة في الحياة، والسُّنَّة ههنا هي الشَّرعيَّة، فكأنَّهم لَمَّا تركوا هدي النَّبيِّ ﷺ العامَّ، عاقبهم الله بصرف قلوبهم عن الهدي الخاصِّ، وهؤلاء هم أصل دعاة الضَّلالة الآتي وصفهم بأنَّهم «**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**»، والجزاء من جنس العمل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : 5]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء : 160]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام : 44]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام : 110]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، على أنَّ الجزاء من جنس العمل،



فعلى المؤمن العاقل البصير ألاَّ يستهين بأيِّ شيءٍ ثبت عن النَّبيِّ ﷺ؛ حيث إنَّ خيرَ الهدي هدي محمَّدٍ ﷺ.

وقوله ﷺ: «**تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**» أيْ: خلطوا السُّنَّة مع البدعة، أي: عندهم اتِّباع وعندهم هوى وابتداع، لم تكن أعمالهم خالصةً على السُّنَّة الصَّافية، بل فيها شوائب وأكدار وهو الدَّخن الَّذي أخبر عنه ﷺ، ويزعمون أنَّهم على السُّنَّة، وذلك الدَّخن في أقوالهم وأعمالهم، ولا يكون ذلك إلاَّ وفي القلوب كدرٌ وهوًى، أي أنَّ أقوالهم وأعمالهم تنبئ عمَّا في قلوبهم.

والدَّخن الَّذي أصاب الأمَّةَ الإسلاميَّة يستشري عند أقوام ويقلُّ عند آخرين، وذلك بحسب الاهتداء والاستنان بهدي النَّبيِّ ﷺ وسنَّته، وكذلك في زمانٍ دون زمانٍ؛ حيث أخبر المصطفى ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[1] حتَّى لا ييأس العباد من ذهاب الخير مطلقًا.

❁❁❁

قول حذيفة رضي الله عنه وسؤاله: «فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟»، دليلٌ على حرصه رضي الله عنه لأَنْ يُعْلَمَ بقاءُ الخير أو ذهابه، وكيفيَّة ذلك، فأجابه ﷺ بقوله: «**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، وهؤلاء الدُّعاة دعاة ضلالة وأئمَّة البدع والفرق والأحزاب والأفكار الضَّالَّة والمنحرفة وكلِّ أنواع الضَّلالة الَّتي ظهرت في الإسلام، وكأنَّهم استساغوا الشَّرَّ والضَّلال والفسق والفجور والمعاصي والزِّنا والرِّبا، وفرحوا به وصاروا دعاةً له؛ وذلك بسبب الشُّبُهات الَّتي دخلت عليهم والأهواء الَّتي عصفت بهم، والشَّهوات العارمة، فصدق فيهم وصف النَّبيِّ ﷺ «**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**» وفي الحديث الآخر قوله: «**وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لاَ يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلاَ مَفْصِلٌ إِلاَّ دَخَلَهُ**»[2].

وقوله ﷺ: «**عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**» أي: باعتبار ما يؤول إليه أمرهم، ومن دعوتهم للباطل والضَّلال، وطمسهم السُّنَّة النَّبويَّة الهادية ومعالمها بعملهم هذا، وقد ظهروا الآن ظهورًا بيِّنًا واضحًا، لا يخفى إلاَّ على من طمس الله بصيرته، وهم دعاة وحدة الأديان وحريَّة الأديان، ودعاة الدِّيمقراطيَّة، ودعاة العلمانيَّة، ودعاة اللِّيبرالية، ودعاة الحريَّة المطلقة، وغير ذلك ممَّا يقذف به شياطين الجنِّ والإنس في قلوبهم، وقد كانوا من قبل كالرَّافضة والجهميَّة والمعتزلة والصُّوفيَّة والخوارج والقدريَّة، وكلِّ بدع الضَّلالة الَّتي ظهرت في الإسلام، ومسمَّيات كثيرةٍ لا يعلمها إلاَّ الله ممَّا يوحي به شياطين الجنِّ والإنس، والغاية من ذلك هي إفساد الإسلام باسم الإسلام، وما أعدل الله ـ جلَّ وعلا ـ في حكمه! فإنَّه لا يدخل النَّار إلاَّ من يستحقُّ، فهؤلاء الدُّعاة الَّذين هم على أبواب جهنَّم، لا شكَّ أنَّهم داخلون فيها، وكذلك من يدعونه ويستجيب لهم؛ حيث استبدلوا الضَّلالة بالهدى، واستبدلوا الَّذي هو أدنى بالَّذي هو خير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران].

والخلاصة أنَّ كلَّ داعيةٍ إلى ضلالة وإلى بدعة خلاف ما شرع الله لعباده؛ فإنَّه متوعَّد بالنَّار، هو ومن يستجيب له، فالعاقل ينجو من النَّار، ولا نجاة إلاَّ بالوحي المعصوم الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الكتاب والسُّنَّة على فهم سلف الأمَّة.

❁❁❁

ثمَّ بيَّن ﷺ وصف هؤلاء الدُّعاة الضَّالين المضلِّين، الَّذين هم على أبواب جهنَّم، بسؤال حذيفة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ بقوله: «صفهم لنا».

فبيَّن لنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أوصاف هؤلاء الدُّعاة لنحذرهم، فما أعظَمَهُ من ناصح! وما أعْظَمَ المستَنْصِح! ـ أيضا ـ، فقال له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**» أي: أنَّهم عربٌ مسلمون،

(1) أبو داود (4291).

(2) أبو داود (4597) وأحمد (16937).

لغتهم ولسانهم لسان العرب، فقوله: «مِنْ جِلْدَتِنَا» أي: من قومنا من العرب، وقوله: «وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» أي: لغتنا ولساننا، وكذا يدَّعون الإسلام والصلاح، لكنَّ الفكرَ والعقيدةَ والفهمَ والتَّوجُّهَ والمذهبَ، على ضلالة كما في رواية أخرى: «قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينَ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، القلوب والعقول منحرفةٌ ضالَّةٌ ضلالَ إبليس وأجسادهم أجساد بني آدم، ولا أدلَّ على ذلك من هؤلاء اللِّيبراليِّين والعلمانيِّين والدِّيمقراطيِّين الآن، وغيرهم من الفرق والأحزاب ممَّن فسدت فِطَرُهُمْ، ويُفْسِدُون في الأرض ويحسبون أنَّهم مهتدون.

ومن الدُّعاة إلى النَّار «الَّذِينَ هُمْ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ» الدُّعاة إلى وحدة الأديان وحرِّيَّة الأديان، وكذا قول القائل: إنَّ الأديان السَّماوية ثلاثة، إرضاءً للغرب، وهذا ضلال وكفرٌ؛ وذلك لأنَّه أن الدين عند الله واحدٌ وهو الدِّين الحقُّ، دين الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : 19]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران]، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس : 32]، وقد صحَّ عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «لا يَسْمَعُ بِي أحد من هذه الأمة يَهُوديٌّ ولا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[3]، والأنبياء والرُّسل كلُّهم كان دينُهم الإسلام، وهو

(3) مسلم (153).

الاستسلام لله بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والخلوص من الشِّرك، فدعاة وحدة الأديان الآن وحرِّيَّة الأديان كذلك، هم على ضلال وهم دعاةٌ على أبواب جهنَّم، أجارنا الله من النَّار.

❁❁❁

ثم سؤال حذيفة رضي الله عنه في حواره مع النَّبيِّ ﷺ وطلبه الهداية والنَّجاة بقوله: «فما تأمرني إن أدركني ذلك؟»، وهو ما نعاني منه الآن ونحتاج إلى الإجابة الشَّافية عنه، لا سيما وقد ظهر الدُّعاة على أبواب جهنَّم، فأجابه النَّبيُّ ﷺ راسمًا له طريق النَّجاة بقوله: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، ووالله إنَّ الجماعةَ والإمامة نجاةٌ ورحمةٌ وخيرٌ، وإنَّ الفُرقةَ والضَّلالَ هلاكٌ وشرٌّ أيُّ شرٍّ، والعاقل يعمل للإصلاح والجمع امتثالاً لقول النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[4] ورحم الله امرأً قال خيرًا فغنم، أو سكت فسلم.

ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم واجب كلِّ مسلم، وقد قال النَّبيُّ - صلوات الله وسلامه عليه -: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[5]، وقد أجمع أهل العلم على وجوب لزوم الجماعة، وحرمة الخروج على الحكَّام والأمراء، حتَّى أئمَّة الجور، وهذا ما دلَّت عليه الأحاديث والآثار عن السَّلف - رضوان الله عليهم - أنَّه لا بدَّ من إمام، ولا بدَّ من سمعٍ وطاعةٍ للإمام، وقد صحَّ

(4) متَّفق عليه.
(5) مسلم (1851).

عن عليٍّ رضي الله عنه الخليفةُ الرَّاشد قوله: «لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ إِمَامٍ يَجْمَعُهُمْ، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا»، قيل له: ما بال الفاجر؟ قال: «تَأْمَنُ السُّبُلُ وَتَجْتَمِعُ الكَلِمَةُ وَيَخَافُ الظَّالِمُ وَتُؤَدَّى الحُقُوقُ»، ولا يصلح النَّاس بغير إمام أبدًا.

لا يصلح النَّاسُ فوضى لا سَرَاة لهم

ولا سراة إذا جهَّالُهُمْ سادوا

والإمامة لا تصلح إلاَّ بسمعٍ وطاعة، والسَّمع والطَّاعة لا تكون إلاَّ في المعروف، ولا تكون في المنكر والمعصية، وإن ضرب الظَّهر وأخذ المال، وهنا يأتي مقامُ الصَّبر على جور الحكَّام، والاستجابة لوصيَّة النَّبيِّ ﷺ، حيث قال ﷺ: «اسْمَعْ وَأَطِعْ» وكذا قوله: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً» أي: ظلمًا وجورًا، «فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ»، وهذا من تمام نصحه وحرصه على الاجتماع وعدم التَّفرُّق، فأبى الخوارج الأنجاس الأرجاس والفرق الضَّالَّةُ هذه النَّصيحة، فخرجوا على أمَّة محمَّد ﷺ بالسَّيف واستحلُّوا الدَّم الحرام والبلد الحرام والشَّهر الحرام، وركبوا الهوى بتأويلاتٍ شيطانيَّةٍ وشبهٍ إبليسيَّة.

إنَّ الإسلام جاء رحمةً للعالمين، كما قال - جلَّ وعلا -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، فجاء هؤلاء وفرَّقوا كلمةَ المسلمين، فجعلوه عذابًا عليهم، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون، وفي الحديث: «الجماعةُ رحمةٌ والفرقةُ عذابٌ».

❁❁❁

وقال الصَّادق الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يوصي حذيفة رضي الله عنه وهي لنا كذلك، وذلك عند تفرُّق المسلمين أحزابًا وفرقًا، وليس لهم إمامٌ ولا جماعةٌ؛ حيث سأله حذيفة فقال له: «فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟» أي: أنَّهم صاروا أحزابًا وفرقًا، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون، كما هو مشاهَدٌ الآن، وهؤلاء هم الدُّعاة على أبواب جهنَّم، فما المخرج؟ وما العمل؟ فأرشده النَّاصح الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بقوله: «**اعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**» وفي رواية: «**فَإِنْ تَمُتْ يَا حُذَيْفَةُ! وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ**»، وفي رواية: «**فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ للهِ خَلِيفَةً فَالْزَمْهُ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ، فَإِنْ لَمْ تَرَ خَلِيفَةً فَاهْرُبْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ**»، نصيحةٌ غاليةٌ عظيمةٌ من أعظَم ناصحٍ في الدُّنيا، وهي عدم الخوض والمشاركة في الفوضى، وفرقة المسلمين، فالويل ثمَّ الويل لمن يعمل على فرقة المسلمين، ويزعم ويدَّعي أنَّ الجماعات والأحزاب والفرق في الإسلام علامةُ خيرٍ ووعيٍ ونضجٍ للشُّعوب، وما علم المسكين قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدَّالَّة على ذلك، وهو قوَّةُ الاجتماع وضعف التَّفرُّق، وقد أخبر النَّبيُّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنَّ هذه الأمَّة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فرقةً كلُّها على خطأ وضلالٍ، وهي في النَّار إلاَّ واحدة، وهي الجماعة، وهي الفرقة النَّاجية، ولا تجتمع على ضلالة، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، وهذا الإخبار عن تفرُّق المسلمين قَدَرٌ غيبيٌّ وليس أمرًا شرعيًّا حتَّى لا تلتبسَ الأمور.

❁❁❁

وقد ورد في رواية للحديث سؤال حذيفة رضي الله عنه للنَّبيِّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد هذه الفوضى الَّتي ستصيب المسلمين وهي: «إنَّه ليس لهم جماعة ولا إمام» بقوله: «ثمَّ ماذا؟!» قال له الرَّسول ﷺ: «**ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ**».

قلت: يُعْلَمُ من ذلك ويُفْهَمُ أنَّ خروجَ الدَّجال في زمن الفوضى وتفرُّق المسلمين، وأنَّه ليس لهم إمامٌ ولا حاكمٌ والله المستعان، وبذلك ينتشر الظُّلم والفجور وسائر المعاصي والموبقات، نسأل الله أن يجيرنا من ذلك.

وبذلك يُعْلَمُ عظَمُ أمر الحاكم وإن كان جائرًا ظالمًا، وقديمًا قال السَّلفُ: «حاكمٌ ظلوم ولا فتنةٌ تدوم»، وهذه الفوضى وظهور الدَّجَّال مؤذنٌ بخراب الدُّنيا وقيام السَّاعة، وفتنةُ الدَّجَّال هي أعظم فتنة على وجه الأرض، وهو آتٍ لا محالة كما هو مذكورٌ في كتب الفتن وأشراط السَّاعة حيث أخبر ﷺ بذلك ووصفه، وحذَّر منه، وههنا بيَّن زَمَنَه، فما أعظَمَهُ من ناصح!

❁❁❁

ثمَّ سؤال حذيفة واستفساره عن الدَّجَّال وفتنته بقوله: «فبم يجيء؟»، قال له الرَّسول ﷺ: «**بِنَهْرٍ** ـ أو قال: **بِمَاءٍ** ـ **وَنَارٍ**» أي: فيما يرى الرَّائي فتنةٌ للعباد، ثمَّ النَّصيحة الغالية من المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بقوله: «**فَمَنْ دَخَلَ نَهْرَهُ**» أي: قبل فتنته ودجله وكذبه، «**حُطَّ أَجْرُهُ وَوَجَبَ وِزْرُهُ، وَمَنْ دَخَلَ نَارَهُ**» أي: رد فتنته وهرب منه، «**وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وِزْرُهُ**»[6].

❁❁❁

ثمَّ سؤال حذيفة ـ أيضًا ـ بقوله: «فما بعد الدَّجَّال؟» قال: «**عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**» أي: نزوله لقتل عدوِّ الله الدَّجَّال دجَّال اليهود، وهم ينتظرونه الآن وسيتْبَعُهُ سبعون ألفًا من يهود أصبهان كما صحَّ ذلك في «صحيح مسلم» (2944)، ثمَّ بعد ذلك تنتهي الحياة وتقوم السَّاعة، قال حذيفة: «ثمَّ ماذا؟!»، قال: «**لَوْ أَنْتَجْتَ فَرَسًا لَمْ تَرْكَبْ فُلُوَّهَا** ـ وهو فصيلُها ـ **حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

فاللهم سلِّم سلِّم، وأحسن خاتمتنا يا ربَّ العالمين وأجِرْنا من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة إنَّك جوادٌ كريمٌ، آمين.

❁❁❁

(6) هذا تفسير باللاَّزم من غير نفي الملزوم وهو إثبات النَّهر والنَّار على حقيقتهما (التحرير).



تنوير الفهوم بشرح اسم الله القيُّوم

عز الدين مارير
ماجستير في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

إنَّ الله عز وجل اختار لنفسه من الأسماء أحسنها، وضمَّنها من الصِّفات أكملها، فهو الحيُّ القيُّوم الَّذي قامت به الخلائق، فلولاه ما تحرَّك ساكن، ولا سكن متحرِّك؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: 25]، وقال عز وجل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33]. فهو الغنيُّ عن خلقه الفقراء إليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 13]، «قيُّوم السَّموات والأرضين، إله الأوَّلين والآخرين، ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، منزَّهًا عن أضدادها من النَّقائص والتَّشبيه والمثال، فهو الحيُّ القيُّوم الَّذي لكمال حياته وقيُّوميَّته لا تأخذه سِنَة ولا نوم»[1].

وممَّا سمَّى الله به نفسه اسمه «القيُّوم»:

قال الرَّبيعُ بنُ أنَس: «قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَكْلَؤُهُ وَيَرْزُقُهُ وَيَحْفَظُهُ»[2].

وقال ابن منده: «القائم الدَّائم في ديموميَّة أفعاله وصفاته[3]، وعلى كلِّ نفس بما كسبت»[4].

وقال ابن جرير: «القائم برزق ما خلق وحفظه»[5].

وقال ابن كثير: «القيُّوم: الَّذي لا ينام، وهو قيِّمٌ على كلِّ شيء، يدبِّره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الَّذي كلُّ شيء فقيرٌ إليه، لا قوام له إلاَّ به»[6].

وبعد وقوفك على هذه التَّفاسير ـ وغيرها كثير ـ؛ تجدها لا تخرج عن معنيين عليهما مدارها، وَهُمَا:

الأوَّل: قيام الله تعالى بنفسه واستغناؤه عن مخلوقاته.

الثَّاني: إقامته للمخلوقات وعدم استغنائهم عنه، وافتقارهم إليه في كلِّ شيء، فهو الغنيُّ بذاته عز وجل، وهم الفقراء المحتاجون إليه.

يقول ابن القيم في «نونيَّته»:

هذا ومن أوصافه القيُّوم والـ
قيُّوم في أوصافه أمرانِ
إحداهما القيُّوم قام بنفسه
والكون قام به هما الأمران
فالأوَّل استغناؤه عن غيره
والفقر من كلٍّ إليه الثَّاني
والوصف بالقيُّوم ذو شأن كذا
موصوفه أيضًا عظيم الشَّان

□□□

أوَّلاً ـ قيام الله تعالى بنفسه واستغناؤه عن مخلوقاته

إنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ لكمال قيُّوميَّته، وغناه، قام بنفسه واستغنى عن خلقه، فغناه ذاتيٌّ عز وجل.

قال شيخ الإسلام: «والوجود ينقسم إلى قيُّوم يقوم بنفسه ويقيم غيرَه، وإلى ما ليس بقيُّوم، وما ليس بقيُّوم لا يوجَدُ إلاَّ بالقيُّوم؛ فيلزم وجود القيُّوم على التَّقديرين»[7].

قال ابن القيِّم: «القيَّام بالنَّفس صفةُ كمال، فالقائم بنفسه أكمل ممَّن لا يقوم بنفسه، ومن كان غناه من لوازم ذاته؛ فقيامه بنفسه من لوازم ذاته، وهذه حقيقة قيُّوميَّته سبحانه، وهو الحيُّ

---

(1) «طريق الهجرتين» لابن القيِّم (1/269 ـ 270).
(2) انظر «تفسير ابن جرير» (5/388).
(3) انظر «الحجَّة في بيان المحجَّة» للتَّيمي (1/129).
(4) «كتاب التَّوحيد» (324).
(5) في «التَّفسير» (5/388) وانظر «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (4/268).
(6) «تفسير ابن كثير» (9/370).
(7) «الصَّفديَّة» (316).

القيُّوم، فالقيُّوم القائم بنفسه المقيم لغيره، فمن أنكر قيامه بنفسه بالمعنى المعقول؛ فقد أنكر قيُّوميَّته وأثبت له قيامًا بالنَّفس يشاركه فيه العدم المحض، بل جعل قيُّوميَّته أمرًا عدميًّا لا وصفًا ثبوتيًّا»[8].

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان : 26]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر].

وقال العلاَّمة السَّعدي رحمه الله:

«أي: الَّذي له الغنى التَّامُّ من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيءٍ ممَّا يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلِّها صفات كمال، ونعوت وجلال، ومن غناه تعالى أنْ أغنى الخلقَ في الدُّنيا والآخرة»[9].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله:

«...فهو ـ سبحانه ـ قيُّوم السَّماوات والأرض، لو أخذته سِنة أو نوم لهلكت السَّماوات والأرض، والمخلوق ليس له من نفسه شيء، بل الرَّبُّ أبدع ذاته، فلا قوام لذاته بدون الرَّبِّ، والمخلوق بذاته فقير إلى خالقه، كما أنَّ الخالق بذاته غنيٌّ عن المخلوق، فهو الأجلُّ الصَّمد، وغناه من لوازم ذاته، كما أنَّ فقر المخلوق إلى خالقه من لوازم ذاته»[10].

□□□

(8) «الصَّواعق المرسلة» (4/1328ـ1329).
(9) «التَّفسير» (687).
(10) «آيات أشكلت على كثير من العلماء» (1/439)، و«جامع المسائل» (5/173).

ثانيًا ـ إقامته للمخلوقات وعدم استغنائهم عنه

إنَّ هذه المخلوقات على اختلاف أجناسها وأصنافها، فهي مفتقرة إلى موجد لها، كما أنَّها في نفس الوقت مفتقرةٌ إليه في استمرارها بما يكلؤها به من الأرزاق، وتيسير سبل الحياة، ولذلك كان أثرُ اسم الله تعالى القيُّوم هو إقامته لهذه المخلوقات، إذ إنَّ أفعاله عز وجل صادرة عن أسمائه وصفاته، فإقامته لخلقه صادر عن اتِّصافه بصفة القيُّوميَّة المشتقَّة من اسمه القيُّوم؛ ولذلك أثبت الله عز وجل فقر مخلوقاته إليه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر].

قال السَّعدي: «يخاطب تعالى جميع النَّاس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنَّهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه»[11].

وقال خليل هرَّاس رحمه الله في المعنى الثَّاني من معاني القيُّوم: «ثانيًا: أنَّه الكثير القيام بتدبير خلقه، فكلُّ شيء في هذا الوجود مفتقرٌ إليه فقرًا ذاتيًّا أصيلاً، لا يمكن أن يستغني عنه في لحظة من اللَّحظات، فهو مفتقر إليه في وجوده أوَّلاً، وفي بقائه بعد الوجود، فهو الَّذي يمدُّه بأسباب البقاء، فلا يقوم شيءٌ في الوجود كلِّه إلاَّ به، فهو دائمُ التَّدبير والرِّعاية لشؤون خلقه، لا يمكن أن يغفل عنهم لحظةً، وإلاَّ اختلَّ نظام الكون وتحطَّمت أركانه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]، فهذا الوصف من أوصافه ذو شأن عظيم كشأن موصوفه؛ إذ هو متضمِّن بمعناه الأوَّل غناه وعظمته، ومتضمِّن بمعناه الثَّاني لجميع صفات الكمال في الفعل؛ إذ لا تمام لها إلاَّ بقيُّوميَّته»[12].

(11) «التَّفسير» (687).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الروم : 25].

قال ابن عثيمين رحمه الله: «فكلُّ شيء من الأشياء قائمٌ بالله عز وجل؛ فهو الَّذي أوجدها، وهو الَّذي أمدَّها حتَّى بقيت، وهو الَّذي أعدَّها، أي هيَّأها لما تكون صالحةً له، وقيام الشَّيء بالله عز وجل يشمل ثلاثة أشياء: الإيجاد، والإمداد، والإعداد»[13].

□□□

ولقد ورد اسم الله «القيُّوم» في نصوص كثيرة من الكتابِ والسُّنَّة:

□ **أمَّا في القرآن الكريم؛ فقد ورد في ثلاث سور: البقرة، وآل عمران، وطه.**

﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة : 255].

وقد جاءت هذه القيُّوميَّة مفسَّرة بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، ففي نَفْي السِّنة والنَّوم عنه إثباتُ كمال ضدِّ ذلك، وهو كمال حياته وقيُّوميَّته عز وجل.

قال ابن تيميَّة: «ولهذا كان من تمام

(12) «شرح القصيدة النُّونيَّة» (2/491).
(13) «شرح السَّفارينيَّة» (39ـ40).

كونه قيُّومًا لا يزولُ؛ أنَّه لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ، فإنَّ السِّنة والنَّوم فيهما زوال يناي في القيُّوميَّة؛ لما فيهما من النَّقص بزوال كمال الحياة والعلم والقدرة، فإنَّ النَّائم يحصل له من نقص العلم والقدرة والسَّمع والبصر والكلام وغير ذلك ما يظهر نقصه بالنِّسبة إلى الشَّيطان، ولهذا كان النَّوم أخا الموت»[14].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ]، ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ۝١١١﴾ [سُورَةُ طه].

ولم يَردْ هذا الاسم في القرآن إلاَّ مقرونًا باسم الله الحيِّ، كما في الآيات السَّالفة الذِّكر، ولذلك ذكر أهل العلم نكتةً فيها، حيث قال شيخ الإسلام: «واسمه الحيُّ القيُّوم يجمع أصل معاني الأسماء والصِّفات»[15].

وقال ابن القيِّم: «وكذلك إذا اعتبرت اسمه الحيَّ؛ وجدتَّه مقتضيًا لصفات كماله من علمه وسمعه وبصره وقدرته وإرادته ورحمته وفعله ما يشاء، واسمه القيُّوم مقتضٍ لتدبير أمر العالم العلويِّ والسُّفلي وقيامه بمصالحه وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنَّه الحيُّ القيُّوم، وإن أقرَّ بذلك ألحد في أسمائه وعطَّل حقائقها حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها وبالله التَّوفيق»[16].

وقال السَّعدي: «الحيُّ القيُّوم: كامل الحياة والقائم بنفسه، القيُّوم لأهل السَّموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، فـ«الحيُّ»: الجامع لصفات الذَّات، و«القيُّوم» الجامع لصفات الأفعال»[17].

(14) «جامع المسائل» (55/1) فصل في معنى «الحي القيوم».
(15) «قاعدة جليلة في التَّوسل والوسيلة» (92).
(16) «التِّبيان في أقسام القرآن» (249).

□ أمَّا في السُّنَّة؛ فقد ورد في أحاديث منها:

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إلى فِرَاشِه: أَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْه، ثَلاثَ مَرَّات؛ غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا**»[18].

قال المباركفوري: «وفي الحديث فضيلةٌ عظيمةٌ ومنقبةٌ جليلةٌ في مغفرة ذنوب القائل بهذا الذِّكر ثلاث مرَّات، وإن كانت بالغةً إلى هذا الحدِّ الَّذي لا يحيط به عددٌ، وفضل الله واسع وعطاؤه جمٌّ»[19].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»[20].

وعن زيد مولى النَّبيِّ ﷺ أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْه؛ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ**»[21].

□□□

□ ثمَّ إنَّ اقتران أسماء الله تعالى مع بعضها، واجتماعها يعطي قدرًا زائدًا على مدلول كلِّ واحد منهما بمفرده، فـ«الحيُّ القيُّوم» اسمان جامعان لمعاني الأسماء الحسنى، وعليهما مدارهما، وإليهما مرجع معانيها، ولهذا استدلَّ من قال إنَّ «الحيَّ القيُّوم» هو الاسم الأعظم بنصوص ورد فيها هذان الاسمان، وأنَّ فيها الاسم الأعظم منها:

(17) «تيسير الكريم الرَّحمن» (948).
(18) رواه التِّرمذي (3397) وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه من حديث الوصَّافي عبيد الله بن الوليد». وقال فيه الحافظ: «ضعيف من السادسة» «تقريب التَّهذيب» (316)، وقال الألباني: «ضعيف».
(19) «تحفة الأحوذي» (277/9).
(20) رواه التِّرمذي (3524) وقال الألباني: «حسن».
(21) رواه أبو داود (1517) وقال الألباني: «صحيح».

عن أنس رضي الله عنه أنَّه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجلٌ يصلِّي ثمَّ دعا: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمدَ، لا إله إلاَّ أنت، المنَّانُ، بديع السَّموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيُّومُ»، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِه العَظِيمِ؛ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِه أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِه أَعْطَى**»[22].

وعن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255] و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ]: «**إِنَّ فِيهِمَا اسْمَ اللهِ الأَعْظَمَ**»[23].

وعن أبي أمامة يرفعه قال: «إنَّ اسْمَ اللهِ الأَعْظَمَ لفي سُوَرٍ من القرآن ثلاث: البَقَرَة، وآل عِمْرَان، وطه»، قال عمرو ابن أبي سلمة: «فنظرت أنا في هذه السُّور فرأيت فيها شيئًا ليس في شيء من القرآن مثله؛ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]، وفي آل عمران ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ]، وفي طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ [طه: 111]»[24].

وعن عبد الله بن العلاء عن القاسم قال: «اسمُ الله الأعظم الَّذي إذا دعي به

(22) أبو داود (1495) قال الألباني: «صحيح» انظر «صحيح وضعيف أبي داود» و«النَّسائي» (1300).
(23) رواه أحمد (27611) تحقيق التُّركي.
(24) رواه البيهقي في «الأسماء والصِّفات» (29) وانظر تخريجه في «الدُّرّ المنثور» للسُّيوطي (177/3).

أجاب في سُوَرٍ ثلاث: البقرة، وآل عمران، وطه»[25].

قال العلاَّمة السَّعدي: «وكلُّ الصِّفات الفعليَّة، والمجد، والعظمة، والجلال ترجع إلى اسمه القيُّوم، ومرجع صفات الكمال كلِّها ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين، ولذلك ورد الحديث أنَّ اسم الله الأعظم الَّذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ لاشتمالهما على جميع الكمالات، فصفات الذَّات ترجع إلى الحيِّ، ومعاني الأفعال ترجع إلى القيُّوم»[26].

وقال الشَّيخ ابن عثيمين: «قال أهل العلم: وإنَّما كان الاسم الأعظم في اجتماع هذين الاسمين؛ لأنَّهما تضمَّنا جميع الأسماء الحسنى؛ فصفة الكمال في الحيِّ؛ وصفة الإحسان والسُّلطان في القيُّوم»[27].

□ ولقد ورد هذا الاسم في النُّصوص الشَّرعيَّة بصيغ أخرى للدَّلالة على المبالغة، بل هي ثابتة بقراءة بعض الصَّحابة كعمر وابن مسعود رضي الله عنهما وكلُّها لغات بمعنى واحد، وهي «القيُّوم، والقيَّام، والقيِّم».

قال ابن الأثير: «في حديث الدُّعاء: «لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ»، وفي رواية «قَيِّم»، وفي أخرى «قَيُّوم»، وهي من أبنية المبالَغة، وهي من صفات الله تعالى، ومعناها: القائم بأمور الخَلق ومُدَبِّرُ العالم في جميع أحواله»[28].

قال البغوي: «القَيُّومُ: قَرَأَ عُمَرُ وَابن مسعود: «القَيَّامُ»، وقرأ علقمة: «القَيِّمُ»، وَكُلُّهَا لُغَاتٌ بمعنًى واحد»[29].

فمن النُّصوص الَّتي وردت فيها هذه الصِّيغ:

منها حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصَّلاة من جوف اللَّيل يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فيهنَّ» الحديث[30].

قال شيخ الإسلام: «فلفظ «القيَّام» يقتضي شيئين: القوَّةَ والثَّبات والاستقرار، ويقتضي العدلَ والاستقامةَ، فالقائم ضدُّ الواقع، كما أنَّه ضدُّ الزَّائل، والمستقيم ضدُّ المعوجِّ المنحرف»[31].

وفي رواية أخرى قوله: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فيهنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فيهنَّ...»[32] الحديث.

قال العيني: «والقيِّم والقيَّام والقيُّوم بمعنى واحد وهو الدَّائم القيام بتدبير الخلق المعطي له ما به قوامه أو القائم بنفسه المقيم لغيره»[33].

ثمَّ إنَّ عبوديَّة الله تعالى بأسمائه وصفاته، لها أثرٌ كبيرٌ على سلوك العبد اتِّجاه ربِّه عز وجل، إذ الخلق يختلفون في معرفة الله تعالى، فـ«من النَّاس من يعرف الله بالجود والإفضال والإحسان ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتَّجاوز... وأعظم هؤلاء معرفة؛ من عرفه من كلامه؛ فإنَّه يعرف ربًّا قد اجتمعت له صفات الكمال، ونعوت الجلال»[34].

ولذلك فإنَّه من تعلَّق باسم الله القيُّوم، وتعبَّد له بما دلَّ عليه من المعاني، أورثه الثِّقة بالله تعالى، وحسن الظَّنِّ به، واستفراغ الوسع في طلب مرضاته، ومن ذلك دعاؤه والتَّوسُّل إليه باسميْه «الحيِّ القيُّوم» لدفع الهمِّ والكرب.

يقول ابن القيِّم: «وفي تأثير قوله: «يا حيُّ يا قيُّوم برحمتك أستغيث»؛ في دفع هذا الدَّاء مناسبةٌ بديعةٌ؛ فإنَّ صفة الحياة متضمِّنةٌ لجميع صفات الكمال مستلزمةٌ لها، وصفة القيُّوميَّة متضمِّنةٌ لجميع صفات الأفعال ولهذا كان اسم الله الأعظم الَّذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى: هو اسم الحيِّ القيُّوم، والحياة التَّامة تضادُّ جميع الأسقام والآلام، ولهذا لمَّا كملت حياة أهل الجنَّة لم يلحقهم همٌّ ولا غمٌّ ولا حزن ولا شيء من الآفات، ونقصان الحياة تضرُّ بالأفعال وتنافي القيُّومية، فكمال القيُّوميَّة لكمال الحياة، فالحيُّ المطلق التَّام الحياة لا تفوته صفة الكمال البتَّة، والقيُّوم لا يتعذَّر عليه فعل ممكن البتَّة فالتَّوسُّل بصفة الحياة والقيُّوميَّة له تأثير في إزالة ما يضادُّ الحياة ويضرُّ بالأفعال... والمقصود: أنَّ لاسم الحيِّ القيُّوم تأثيرًا خاصًّا في إجابة الدَّعوات وكشف الكربات»[35].

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

□□□

(25) ابن ماجه (3856) قال الألباني: «حسن» «صحيح وضعيف ابن ماجه» وانظر «الصَّحيحة» (746).

(26) «توضيح الكافية الشَّافية» (3/300) ضمن مجموع مؤلَّفاته.

(27) «التَّفسير الثَّمين» للعلاَّمة ابن عثيمين (2/271-272).

(28) «النهاية» (4/134).

(29) «معالم التَّنزيل» (3/312).

(30) رواه مسلم (769).

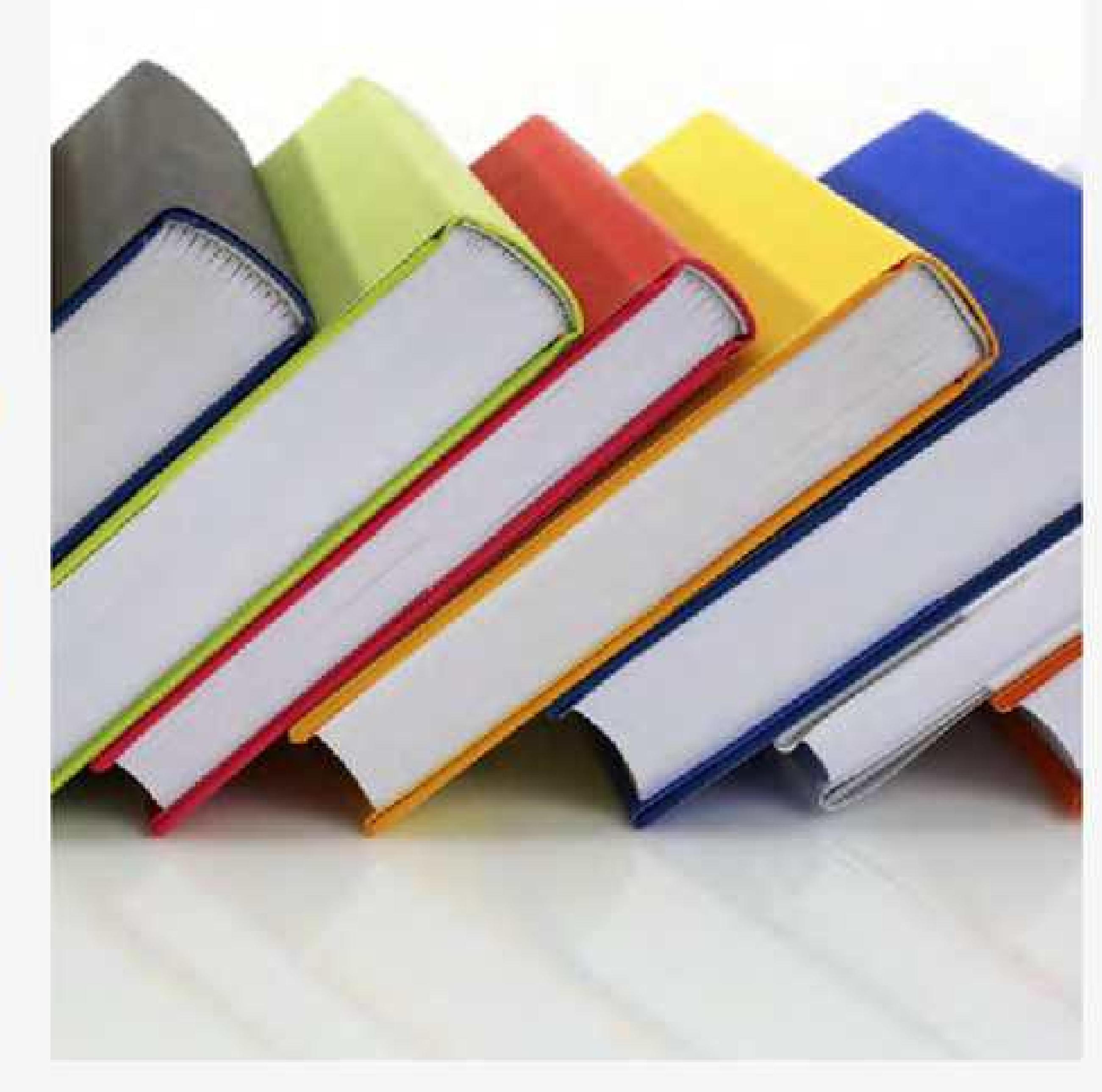
(31) «جامع المسائل» (5/161-162).

(32) رواه البخاري (7136) ومسلم (769).

(33) «عمدة القاري» (7/241).

(34) «الفوائد» لابن القيِّم (227).

(35) «زاد المعاد» (4/204).



حكم قيام المتبع للجنازة حتى توضع

د. صالح رمضة
دكتوراه في الفقه . الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

سبق الكلام في عددٍ سابقٍ عن حكم قيام الجالس للجنازة إذا مرَّت به، وأنَّ القيام لها منسوخٌ على الرَّاجح من قولي العلماء، وفي هذا العدد نتكلَّم . إن شاء الله تعالى . عن الموضع الثَّاني الَّذي وعدنا الإخوة القرَّاء بالحديث عنه وهو حكم قيام المتَّبع للجنازة حتَّى توضع على الأرض، وقد اختلف السَّلف والخلف في القيام لها حتَّى توضع هل هو منسوخٌ أو محكمٌ؟ على قولين.

■ القول الأول:

يُسْتَحَبُّ القيام لمتَّبع الجنازة حتَّى توضع، والقيام لها غير منسوخ، ورُوِيَ القيام عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وابن عمر، والمسور بن مخرمة، وابن الزُّبير[1]، وابن سيرين[2]، والنَّخعي، والشَّعبي[3]، والأوزاعي[4]، وهو مذهب أبي حنيفة[5]، وأحمد[6]، وإسحاق[7]، وابن حبيب وابن الماجشون من المالكيَّة[8]، وبعض الشَّافعيَّة[9]، واختاره النَّووي[10]، وهو مذهب ابن حزم[11].

(1) انظر: «مصنَّف عبد الرَّزَّاق» (3/462. 463)، «مصنَّف ابن أبي شيبة» (3/41 . 42)، «الأوسط» (5/392)، «الاستذكار» (8/302)، «المغني» (3/404).
(2) انظر: «مصنَّف عبد الرَّزَّاق» (3/462)، «الاستذكار» (8/302).
(3) انظر: «الأوسط» (5/392)، «الاستذكار» (8/302)، «المجموع» (5/242)، «المغني» (3/404).
(4) انظر: «المغني» (3/404).
(5) وقالوا: يكره القعود قبل أن توضع الجنازة، انظر «المبسوط» (2/57)، «المحيط البرهاني» (2/304)، «بدائع الصَّنائع» (1/460).
(6) انظر: «المستوعب» (3/150)، «المغني» (3/404)، «بدائع الفوائد» (4/1474)، «الإنصاف» (6/213).
(7) انظر: «مسائل الكوسج» (3/1412)، «سنن التِّرمذي» (3/352)، «الأوسط» (5/393).
(8) انظر «النَّوادر والزِّيادات» (1/581)، «المنتقى» (2/24)، «مواهب الجليل» (2/241).
(9) انظر «روضة الطَّالبين» (2/116)، «المجموع» (5/241)، «فتح الباري» (3/216).
(10) انظر «المجموع» (5/241).
(11) انظر «المحلَّى» (5/153).

■ القول الثاني:

القيام للجنازة حتَّى توضع منسوخٌ، ولا يستحبُّ القيام، وهو مرويٌّ عن عليٍّ، وابن عبَّاس رضي الله عنهم[12]، ومذهب مالك[13]، والشَّافعي[14].

❁❁❁

■ أدلة أصحاب القول الأول:

استدلَّ القائلون بأنَّ القيام للجنازة غير منسوخ، وأنَّه يُسْتَحَبُّ القيام حتَّى توضع بالسُّنَّة والنَّظر:

أوَّلاً . الدَّليل من السُّنَّة:

□ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الجَنَازَةَ فَقُومُوا، فَمَنْ تَبِعَهَا فَلاَ يَجْلِسْ حَتَّى تُوضَعَ**»[15].

وفي لفظ: «**إِذَا اتَّبَعْتُمْ جَنَازَةً، فَلاَ تَجْلِسُوا حَتَّى تُوضَعَ**»[16].

وعن أبي سعيد المقبري، قال: «كنَّا

(12) انظر «مصنَّف عبد الرَّزَّاق» (3/462. 463)، «مصنَّف ابن أبي شيبة» (3/41. 42)، «تهذيب الآثار» (2/558. 562)، «الأوسط» (5/392)، «الاستذكار» (8/302)، «المحلَّى» (5/154).
(13) انظر «النَّوادر والزِّيادات» (1/580)، «الإشراف على نكت مسائل الخلاف» (1/362)، «شرح صحيح البخاري» لابن بطَّال (3/292)، «المنتقى» (2/24).
(14) انظر «اختلاف الحديث» (ص157)، «الأوسط» (5/395)، «الحاوي الكبير» (3/49)، «المجموع» (5/241).
(15) أخرجه البخاري (1310)، ومسلم (959).
(16) أخرجه مسلم (959).

في جنازة فأخذ أبو هريرة رضي الله عنه بيد مروان فجلسا قبل أن توضع، فجاء أبو سعيد رضي الله عنه فأخذ بيد مروان، فقال: قم، فوالله لقد علم هذا أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم نهانا عن ذلك، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: صدق»[17].

□ عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الجَنَازَةَ فَقُومُوا لَهَا، حَتَّى تُخَلِّفَكُمْ أَوْ تُوضَعَ»[18].

□ عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، قالا: «ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد جنازةً قطُّ، فجلس حتَّى توضع»[19].

قال ابن حزم: «فهذا عمله عليه السلام المداوم، وأبو هريرة وأبو سعيد ما فارقاه عليه السلام حتَّى مات، فصحَّ أنَّ أمرَه بالجلوس إباحةٌ وتخفيف، وأمره بالقيام وقيامه ندب»[20].

ثانيًا. الدَّليل من النَّظر:

□ إنَّما حضر المشيِّعُون إكرامًا للميِّت، والجلوس قبل الوضع يشبه الازدراء والاستخفاف به، وبعد الوضع لا يؤدِّي إلى ذلك[21].

□ أنَّ المشيِّعين أتباع الجنازة، والتَّبع لا يقعد قبل قعود الأصل[22].

■ أدلة أصحاب القول الثاني:

استدلَّ القائلون بأنَّ القيام للجنازة حتَّى توضع منسوخٌ بالسُّنَّة:

□ عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه قال: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمَّ قعد»[23].

وفي رواية عنه بلفظ: «رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قام، فقمنا، وقعد، فقعدنا» يعني: في الجنازة[24].

فهذا لفظ عامٌّ يدلُّ على نسخ القيام للجنازة إذا مرَّت، وقيام التَّابع لها حتَّى توضع على الأرض[25].

□ عن عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم في الجنازة حتَّى توضع في اللَّحد فمرَّ به حبرٌ من اليهود، فقال: هكذا نفعل، فجلس النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال: «**اجْلِسُوا، خَالِفُوهُمْ**»[26].

قال الحافظ ابن عبد البرِّ: «وهذا في معنى حديث علي رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في نسخ القيام بالجلوس»[27].

وقال الإمام الطَّبري بعد أن ذكر حديث علي وعبادة رضي الله عنهما: «قالوا: وهذه الأخبار تنبئ عن أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قعد بعد أن صلَّى على الميِّت قبل أن يوضع الميِّت في اللَّحد، وأمر بذلك أصحابَه من بعد ما كان يقوم حتَّى توضع في اللَّحد.

قالوا: والمعمول به من أفعاله وسنَّته الآخر النَّاسخ، دون الأوَّل المنسوخ»[28].

❁❁❁

■ مناقشة الأدلة:

● مناقشة أدلَّة أصحاب القول الأوَّل:

أجيب عن أحاديث القيام للجنازة بأنَّها منسوخة بأحاديث الجلوس لها، قال الإمام الحميدي عن حديث عامر ابن ربيعة رضي الله عنه: «وهذا منسوخ»[29]، وقال النَّووي: «قال الشَّافعي وجمهور أصحابنا: هذان القيامان منسوخان، فلا يؤمر أحد بالقيام اليوم، سواء مرَّت به أم تبعها إلى القبر»[30].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «قد اختلف العلماء في القيام للجنازة إذا مرَّت، ومعها إذا شُيِّعَت، وأحاديث الأمر بذلك كثيرةٌ مستفيضةٌ، ومن اعتقد نسخها، أو نسخ القيام للمارَّة، فعمدته: حديث علي وحديث عبادة»[31].

فإن قيل: حديث علي رضي الله عنه خاصٌّ بمرور الجنازة، دون قيام المتَّبِع لها[32].

فالجواب: أنَّه ورد في بعض طرقه ما يدلُّ صراحةً على أنَّ اللَّفظ عامٌّ في نسخ القيام، منها:

□ ما ورد عن واقد بن عمرو ابن سعد بن معاذ أنَّه قال: «رآني نافع ابن جبير - ونحن في جنازة - قائمًا، وقد جلس ينتظر أن توضع الجنازة، فقال لي: ما يقيمك؟ فقلت: أنتظر أن توضع الجنازة؛ لما يحدِّث أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، فقال نافع: فإنَّ مسعود بنَ الحكم حدَّثني عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه قال:

---

(17) أخرجه البخاري (1309).
(18) أخرجه البخاري (1307)، ومسلم (958).
(19) أخرجه النَّسائي في «سننه» (1917) واحتجَّ به ابن حزم، وفيه عنعنة ابن جريج وهو مدلس.
(20) «المحلَّى» (154/5).
(21) انظر «المبسوط» (57/2)، «المحيط البرهاني» (304/2)، «بدائع الصَّنائع» (460/1)، «فتح القدير» (97/2).
(22) انظر «بدائع الصَّنائع» (460/1).
(23) أخرجه مسلم (962).
(24) أخرجه مسلم (962).
(25) انظر «الاستذكار» (299/8)، «المنتقى» (24/2).
(26) أخرجه أبو داود في «سننه» (3176)، والتِّرمذي في «سننه» (1020)، وابن ماجه في «سننه» (1545)، والطَّبري في «تهذيب الآثار» (832)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» (345)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (28/4) كلُّهم من طريق عبد الله ابن سليمان بن جنادة بن أبي أميَّة الأزدي، عن أبيه، عن جدِّه، عنه به. وهذا إسناد ضعيف؛ لأنَّ عبد الله ابن سليمان بن جنادة ضعيف، وأباه سليمان بن جنادة منكر الحديث، «تقريب التَّهذيب» (ص405، 513)، وضعَّفه التِّرمذي، والبيهقي، والنَّووي في «المجموع» (241/5)، وابن القيِّم في «تهذيب السُّنن» (313/4)، وابن حجر في «التَّلخيص الحبير» (663/2).
(27) «الاستذكار» (301/8).
(28) «تهذيب الآثار» (562/2).
(29) انظر «الاستذكار» (299/8).
(30) «المجموع» (241/5).
(31) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (205/1).
(32) انظر «المغني» (405/3).

«قام رسول الله ﷺ، ثمَّ قعد»[33].

فهذا راوي الحديث - وهو أعلم بما رواه من غيره - فَهِمَ دخول قيام التَّابع لها حتَّى توضع في عموم اللَّفظ، واحتجَّ بحديث علي رضي الله عنه على نسخ خبر أبي سعيد رضي الله عنه.

□ ما رواه البيهقي بإسناده عن مسعود بن الحكم، عن علي رضي الله عنه بلفظ: «قام رسول الله ﷺ مع الجنائز حتَّى توضع، وقام النَّاس معه، ثمَّ قعد بعد ذلك، وأمرهم بالقعود»[34].

□ وروي من وجه آخر عن مسعود بن الحكم أنَّه شهد جنازةً مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة، فرأى ناسًا قيامًا ينتظرون الجنازة أن توضع، فأشار إليهم بدرَّة معه أو سوط: «اجلسوا؛ فإنَّ رسول الله ﷺ قد جلس بعدما كان يقوم»[35].

قال الإمام الألباني: «هذا اللَّفظ والَّذي قبله صريحان في أنَّ القيامَ لها حتَّى توضعَ داخلٌ في النَّهي، وأنَّه منسوخٌ، فقول صدِّيق حسن خان في «الرَّوضة» (176/1) بعد أن قرَّر منسوخيَّة القيام لها إذا مرَّت: «وأمَّا قيام النَّاس[36] خلفها حتَّى توضع على الأرض فمحكمٌ لم ينسخ» فهذا خطأ بيِّنٌ؛ لمخالفته لما ذكرنا من اللَّفظين، والظَّاهر أنَّه لم يقف عليهما»[37].

وأمَّا تعليلهم بأنَّ في القيام إكرامًا للميِّت وأنَّ التَّبع لا يقعد قبل قعود الأصل، فهذا تعليل في مقابلة النَّصِّ النَّاسخ للقيام، فلا يسمع.

● **مناقشة أدلَّة أصحاب القول الثَّاني:**

مذهب النَّسخ ضعيف من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّ شرط النَّسخ: المعارضة والتَّأخر، وكلاهما منتفٍ في استمرار قيام المشيِّعين على القبر حتَّى توضع، وإنَّما يمكن دعوى النَّسخ في قيام القاعد الَّذي تمرُّ به الجنازة على ما فيه.

الثَّاني: أنَّ أحاديث القيام كثيرةٌ صحيحةٌ صريحةٌ في معناها، منها حديث عامر بن ربيعة وحديث أبي سعيد وحديث أبي هريرة رضي الله عنهم.

وحديث عبادة رضي الله عنه في ترك القيام ضعيف لا تقوم به حجَّةٌ، قال ابن حجر: «فلو لم يكن إسناده ضعيفًا لكان حجَّةً في النَّسخ»[38].

وحديث علي رضي الله عنه وإن كان في «صحيح مسلم»، فهو حكايةُ فعل لا عموم له، وليس فيه لفظ عامٌّ يحتجُّ به على النَّسخ، وإنَّما فيه: «أنَّه قام وقعد» وهذا يدلُّ على أحد أمرين: إمَّا أن يكون كلٌّ منهما جائزًا، والأمر بالقيام ليس على الوجوب، وهذا أولى من النَّسخ، وبه تأتلف الأدلَّة.

أو يدلُّ على نسخ قيام القاعد الَّذي يُمرُّ عليه بالجنازة، دون استمرار قيام مشيِّعها، وعلى هذا المعنى حمل الإمام إسحاق بن راهويه حديث علي رضي الله عنه، فقال: «الرُّخصة بعد النَّهي إنَّما قام ثمَّ قعد[39]»، يعني إذا رأى جنازةً قام، ثمَّ ترك ذلك بعد[40].

وقال الإمام التِّرمذي: «معنى قول علي: «قام رسول الله ﷺ في جنازة، ثمَّ قعد» يقول: كان رسول الله ﷺ إذا رأى الجنازة قام، ثمَّ ترك ذلك بعد، فكان لا يقوم إذا رأى الجنازة»[41].

وقال ابن قدامة: «قول علي رضي الله عنه محتمل لما ذكره إسحاق، والسَّبب الَّذي ذكرناه فيه، وليس في اللَّفظ عمومٌ، فيعمُّ الأمرين جميعًا، فلم يجُز النَّسخُ بأمر محتمل؛ ولأنَّ قول علي رضي الله عنه: «قام رسول الله ﷺ، ثمَّ قعد» يدلُّ على ابتداء فعل القيام، وهاهنا إنَّما وجدت منه الاستدامة»[42].

ويؤيِّد القول بأنَّ اللَّفظ خاصٌّ بالقيام لمرور الجنازة ما يلي:

□ ما تقدَّم في مسألة القيام للجنازة إذا مرَّت من إنكار علي على أبي موسى وأبي مسعود البدري رضي الله عنهم، ومعارضته لحديث أبي موسى رضي الله عنه في القيام لمرور الجنازة بقوله: «إنَّما قام رسول الله ﷺ لجنازة يهوديَّة، ولم يعد بعد ذلك».

□ عن محمَّد بن المنكدر، عن مسعود

(33) أخرجه مسلم (962).
(34) أخرجه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (27/4)، وقال الألباني في «أحكام الجنائز» (ص101): «إسناده جيِّد».
(35) أخرجه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (6312)، ومن طريقه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (28/4) من طريق موسى بن عقبة، عن قيس بن مسعود ابن الحكم عن أبيه به، وقيس هذا مجهول كما قال الحافظ ابن حجر في «تقريب التَّهذيب» (ص806)، وبه أعلَّه الألباني في «إرواء الغليل» (193/3)، واختلف فيه على موسى بن عقبة، فرواه عن إسماعيل بن مسعود بن الحكم، وعن يوسف بن مسعود بن الحكم. وكلاهما ثقة. عن أبيهما نحوه، أخرجهما البخاري في «التَّاريخ الكبير» (374/1)، (174/8)، والطَّبري في «تهذيب الآثار» (828، 829)، وأخرج الطَّحاوي حديث إسماعيل في «شرح معاني الآثار» (488/1)، ورواه موسى بن عقبة عن عيسى ابن مسعود بن الحكم، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه، أخرجه البخاري في «التَّاريخ الكبير» (374/1)، وسئل أبو زرعة عن هذا الاختلاف، فرجَّح رواية إسماعيل بن مسعود، وقال: «إنَّها أصحُّ» «العلل» لابن أبي حاتم (1101)، وقال الألباني في «أحكام الجنائز» (ص101) عن حديث إسماعيل: «أخرجه الطَّحاوي بسند حسن».
(36) في «الرَّوضة النَّديَّة» (176/1): (الماشي) بدل (النَّاس).
(37) «أحكام الجنائز» (ص101).
(38) «فتح الباري» (216/2).
(39) «مسائل الكوسج» (1412/3).
(40) انظر «المغني» (404/3).
(41) «سنن التِّرمذي» (353/3).
(42) «المغني» (405/3).

بن الحكم، عن علي بن أبي طالب قال: «قام رسول الله ﷺ فقمنا، وقعد فقعدنا» قلت: في جنازة مرَّت؟ قال: «في جنازة مرَّت»[43].

الثَّالث: أنَّ أحاديث القيام لفظ صريحٌ، وأحاديث الترك إنَّما هو فعلٌ محتَمَلٌ لما ذكرنا من الأمرين، فدعوى النَّسخ غير بيِّنة[44].

❁❁❁

■ سبب الخلاف:

يرجع سبب الخلاف بين أهل العلم في قيام المتَّبع للجنازة حتَّى توضع إلى اختلافهم في أمرين:

الأمر الأوَّل: اختلافهم هل القيام منسوخ أو محكم؟ كما سبق تفصيله عند الكلام عن حكم القيام للجنازة إذا مرَّت.

الأمر الثَّاني: إذا قلنا بالنَّسخ في الصُّورة الأولى عند من قال بالنَّسخ وهم الجمهور، فهل اللَّفظ في حديث علي رضي الله عنه عامٌّ يدلُّ على نسخ القيام للجنازة إذا مرَّت، وقيام التَّابع لها حتَّى توضع على الأرض، أو ليس في اللَّفظ عمومٌ، فيعمُّ الأمرين جميعًا، بل هو خاصٌّ يدلُّ على نسخ القيام للجنازة إذا مرَّت فقط، دون استمرار قيام التَّابع لها حتَّى توضع؟

فمن أخذ بالعموم قال بالنَّسخ في الصُّورتين، ومن أخذ بالخصوص قال: بنسخ القيام للجنازة إذا مرَّت فقط، ولم يقل بنسخ استمرار قيام التَّابع لها حتَّى توضع؛ لأنَّ هذه الصُّورة لا تدخل في لفظه.

ومن لم يقل بالنَّسخ في الصُّورة الأولى، فلا يقول بالنَّسخ هنا.

ومذهب أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قيام المتَّبع للجنازة وأنَّ القيامَ غير منسوخ، وقوله لمروان: «فوالله لقد علم هذا - يعني أبا هريرة رضي الله عنه - أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهانا عن ذلك» يعني عن الجلوس، وتصديق أبي هريرة رضي الله عنه لأبي سعيد رضي الله عنه يدلُّ على أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه لم تخفَ عنه هذه السُّنَّة، وأنَّها سنَّة محكمةٌ، وإنَّما تَرَكَها نسيانًا، أو لاعتقاده عدم وجوب القيام، أو لأمر آخر، وقد رُوِيَ ما يدلُّ على أنَّه ترك القيام كراهةَ مخالفةِ وليِّ الأمر.

فروى الطَّبري والحاكم بإسنادهما عن عبد الرَّحمن بن يعقوب الجهني، قال: «شهدتُ جنازةً صلَّى عليها مروان ابن الحكم، وكان أبو هريرة رضي الله عنه مع مروان، فلمَّا بلغا المقبرة جلسا، فجاء أبو سعيد رضي الله عنه، فقال لمروان: «أرني يدك»، فأعطاه، فقال: «قم»، فقام، فقال: «لمَ أقمتني؟» قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رأى الجنازة قام حتَّى يُمَرَّ بها، وكان يقول: إنَّ للموت فَزَعًا، وأبو هريرة يعلم ذلك»، فقال مروان لأبي هريرة رضي الله عنه: «أكذلك قال؟» قال: «نعم»، قال: «فما منعك أن تخبرني؟» قال: «كنتَ إمامًا فاقتديت بك»، قال: «فإذا رأيت شيئًا فآذنِّي»[45].

ورواه الطَّبري من وجه آخر من حديث أبي سعيد المقبري، أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه قال: «شهدنا جنازةً مع مروان ابن الحكم، فلمَّا جئت البقيع جلس قبل أن توضع، فجاءه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال: «قم؛ فإنَّ رسول الله ﷺ كان إذا شهد جنازةً لم يجلس حتَّى توضع، قد علم ذلك أبو هريرة فما منعه أن يخبرك؟» قال: فقلت: «كان ذا سلطان له عليَّ طاعةٌ، فجلسَ، فجلستُ»[46].

فمذهب أبي هريرة رضي الله عنه القيام للجنازة حتَّى توضع، ولم تخف عنه سنَّة القيام الَّتي كان يرويها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وينكر على من تركها، بل وافقه وصدَّقه فيما يرويه، وإنَّما ترك القيام كراهةَ مخالفةِ وليِّ الأمر مروان بن الحكم.

وجلوس أبي هريرة رضي الله عنه يدلُّ على استحباب القيام؛ إذ لو كان القيام عنده واجبًا لما جلس اقتداءً بوليِّ الأمر في مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ، ولما اعتذر بطاعة الأمير عن ترك القيام، وهذا بيِّن.

(43) أخرجه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (27/4).
(44) «تهذيب السُّنن» (312/4. 314).

(45) أخرجه الطَّبري في «تهذيب الآثار» (551/2) (رقم 806) واللَّفظ له، والحاكم في «المستدرك» (356/1. 357) ورجاله ثقات إلاَّ خالد ابن مخلد القَطواني الكوفي، وقال ابن حجر: «صدوق يتشيَّع، وله أفراد» «تقريب التَّهذيب» (ص291)، وقال الحاكم عقب روايته: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السِّياقة» ووافقه الذَّهبي.
(46) أخرجه الطَّبري في «تهذيب الآثار» (551/2) (رقم 807) ورجاله ثقات.

قال الحافظ ابن حجر بعد أن ساق رواية الحاكم: «فعُرِفَ بهذا أنَّ أبا هريرة لم يكن يراه واجبًا، وأنَّ مروان لم يكن يعرف حكمَ المسألة قبل ذلك، وأنَّه بادر إلى العمل بها بخبر أبي سعيد»[47].

وأمَّا أمر أبي سعيد رضي الله عنه لمروان بالقيام، فيحتمل أن يكون أمر إلزام وإيجاب، ويحتمل أن يكون أمر ندب واستحباب، وقد حمله على الوجوب الإمام ابن بطَّال ورأى أنَّ أبا سعيد رضي الله عنه انفرد بذلك عن سائر الصحابة رضي الله عنهم، فقال: «وأمَّا أمر أبي سعيد لمروان بالقيام، فلا أعلم من قال به، وممَّن رُوِيَ عنه القيام للجنازة إذا مرَّت بهم ممَّن ذكرناهم في الباب قبل هذا لم يحفظ عن أحد منهم مثل قول أبي سعيد»[48].

وقال العلاَّمة ابن حزم: «وبه يأخذ أبو سعيد ويراه واجبًا»[49].

فإن قلنا: بأنَّ أبا سعيد رضي الله عنه حمل الأمر بالقيام على الاستحباب وصدَّقه أبو هريرة على ذلك فلا إشكال، وإن قلنا: بأنَّه حمله على الوجوب فما وجه تصديق أبي هريرة رضي الله عنه له على ما ذكر؟

وقد أجاب عنه العلاَّمة العيني بأنَّ تصديقه إيَّاه لأجل ما علم من النَّبيِّ ﷺ أنَّه نهى أوَّلاً عن القعود عند مرور الجنازة، وعلم بعد ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ قعد، فصدَّقه على ما كان أوَّلاً، وجلس هو ومروان على ما استقرَّ عليه آخر العمل[50].

(47) «فتح الباري» (3/213).
(48) «شرح صحيح البخاري» لابن بطَّال (3/294).
(49) «المحلَّى» (5/153).
(50) «عمدة القاري» (8/109 ـ 110).

قلت: في هذا نظر؛ لأنَّه لو كان الأمر كذلك، لقال أبو هريرة رضي الله عنه: «صدقتَ قامَ النَّبيُّ ﷺ ثمَّ قعد» كما قال علي في إنكاره على أبي مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما.

وكذلك يردُّه تعليلُ أبي هريرة رضي الله عنه بأنَّه ترك القيام اقتداءً بالأمير لا لأنَّه استقرَّ عليه آخر العمل، وكذلك يردُّه عمل مروان بخبر أبي سعيد رضي الله عنه بعد أن بلغه، ممَّا يدلُّ على أنَّه لم يكن يعرف حكم المسألة قبل ذلك كما سبق بيانه عن الحافظ ابن حجر.

والَّذي يظهر لي أنَّ أبا سعيد رضي الله عنه كان يحمل الأمر على الاستحباب؛ إذ لو كان يرى القيام واجبًا لما قَبِل عذر أبي هريرة رضي الله عنه في ترك القيام، وإنَّما أنكر على مروان بن الحكم الجلوس وهو الأمير ـ أمير المدينة ـ خشيةَ أن يقتدي به النَّاس في ترك سنَّة القيام الَّتي علمها من النَّبيِّ ﷺ، والله أعلم.

واعتذر العلامة ابن الملقِّن لأبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما بأنَّهما عملا بالمنسوخ وهو القيام؛ لأنَّهما لم يبلغهما النَّاسخ، فقال: «قول أبي هريرة فيما مضى: «صدق» لأبي سعيد لأنَّهما لم يبلغهما النَّسخ»[51].

وقال الإمام ابن القيِّم: «وقد عمل الصَّحابة بالأمرين بعد النَّبيِّ ﷺ، فقعد عليٌّ وأبو هريرة ومروان، وقام أبو سعيد، ولكن هذا في قيام التَّابع»[52].

❁❁❁

(51) «التَّوضيح» (9/594).
(52) «تهذيب السُّنن» (4/314).
قلت: قوله يوهم أنَّ مروان بنَ الحكم من الصَّحابة رضي الله عنهم، وقد اختلف أهل العلم في ذلك، والتَّحقيق أنَّه ليس صحابيًّا، وإنَّما هو من كبار التَّابعين.

■ الترجيح:

الَّذي يظهر لي رجحانه استحباب القيام لمتَّبع الجنازة حتَّى توضع، وأنَّ القيام لها محكمٌ غير منسوخ؛ للأحاديث والآثار الصَّحيحة الدَّالَّة على ذلك، ولضعف مسلك النَّسخ من أوجه كما سبق تفصيله، وأمَّا حديث عبادة رضي الله عنه وإن كان صريحًا في النَّسخ إلاَّ أنَّه ضعيفٌ لا تقوم بمثله حجَّةٌ، وحديث علي رضي الله عنه يحتمل أن يكون في القيام لمرور الجنازة لا في قيام التَّابع لها كما سبق بيانه عن بعض الأئمَّة، والنَّسخ لا يثبت بالاحتمال، والله أعلم.

❁❁❁

■ تنبيهات مهمات على ما تقدم في المسألتين:

التَّنبيه الأوَّل:

أدخل بعض أهل العلم مسألة القيام للجنازة إذا مرَّت بمسألة قيام التَّابع لها حتَّى توضع وجعلهما مسألةً واحدةً، والصَّحيح التَّفريق بينهما، وأنَّ كلَّ واحدة منهما مستقلَّةٌ عن الأخرى، ولكلِّ واحدةٍ منهما حكمها.

التَّنبيه الثَّاني:

ذهب بعض العلماء ـ كما سبق ـ إلى القول بالنَّسخ في المسألتين، وذهب آخرون إلى استحباب القيام في المسألتين، والَّذي رجَّحته التَّفرقة في الحكم بين المسألتين، فرجَّحت النَّسخ في القيام لها إذا مرَّت، ورجَّحت عدم النَّسخ واستحباب قيام

التَّابع لها حتَّى توضع على الأرض، ولعلَّ هذا الَّذي استحسنه الحافظ ابن المنذر وحكاه عن أحمد وإسحاق، فقال: «مذهب أحمد وإسحاق حسن في الوجهين جميعًا»[53].

التَّنبيه الثَّالث:

هل المراد بوضع الجنازة وضعها عن مناكب الرِّجال أو وضعها في القبر؟ أو بمعنى آخر متى يجلس من تبع الجنازة؟

الَّذي يظهر في أصحِّ روايات الحديث أنَّ المراد وضعها عن مناكب الرِّجال، فإذا وضعت الجنازة على الأرض جلس وإن لم توضع في القبر[54].

التَّنبيه الرَّابع:

احتجَّ بعض المغترِّين بحضارة الغرب وبعض الدَّاعين إلى التقريب بين الأديان ـ وهي فكرة خبيثة ماكرة هدَّامة ـ بقيام النَّبيِّ ﷺ لجنازة اليهودي، بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قام تكريمًا للإنسان واحترامًا له مهما كانت ديانته، وهو استدلال باطل، واستنباط عاطل لا يدلُّ عليه الحديث لا من قريب ولا من بعيد، بل تعليل النَّبيِّ ﷺ يردُّه ويبطله، وكذلك فهم الصَّحابة ﷺ وإنكارهم وتعليلهم يدلُّ على نقيض هذا الاستدلال، ولم يفهم أحد من العلماء السَّابقين ولا الأئمَّة المتبوعين هذا الفهم السَّقيم؛ فإنَّ الصَّحابة ﷺ لمَّا استغربوا القيام لجنازة اليهودي علَّل لهم النَّبيُّ ﷺ القيام بقوله: «إنَّ المَوْتَ فَزَعٌ» وفي رواية: «إنَّ للمَوْتِ فَزَعًا»، أي: أنَّ

(53) «الأوسط» (395/5).
(54) انظر «الأوسط» (393/5) «المغني» (405/3) «فتح الباري» (213/3).

القيامَ ليس لذات الشَّخص، وإنَّما القيام لأمر الموت وهوله وفزعه، فيستوي في ذلك المسلم والكافر، وفي الحديث الآخر: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا» معناه: أليست الجنازة نفسًا قُبِضَتْ؟

قال الإمام السِّندي: «ومعنى قوله: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ الجَنَازَةَ فَقُومُوا» أي: تعظيمًا لهول الموت وفزعه لا تعظيمًا للميِّت فلا يختصُّ القيام بميِّت دون ميِّت»[55].

التَّنبيه الخامس: ما يفعله بعض النَّاس في بعض الدُّول الإسلاميَّة من القيام دقيقةَ صمت تحيَّةً للشُّهداء أو العظماء أو الوجهاء، أو تكريمًا لأرواحهم وتشريفًا لهم فهذا من الأمور المحدثة والبدع القبيحة الَّتي لم تكن في عهد النَّبيِّ ﷺ، ولا في عهد الصَّحابة ﷺ، ولا عهد السَّلف الصَّالح، وهي منافية للتَّوحيد وتعظيم الله عز وجل، وليس هذا الفعل من دين الإسلام في شيء، وإنَّما يفعله بعض المسلمين ـ هداهم الله ـ تقليدًا للكفَّار في الدُّول الغربيَّة في غلوِّهم

(55) «حاشية السِّندي على سنن النَّسائي» (347/4).

في زعمائهم ورؤسائهم ووجهائهم، وقد نهانا الله ورسوله ﷺ عن تقليدهم والتَّشبُّه بهم، وإنَّما الطَّريقة الشَّرعيَّة في تكريم الأموات من الشُّهداء وغيرهم، هو زيارة قبورهم الزِّيارة الشَّرعيَّة لا البدعيَّة، والدُّعاء لهم، والحجُّ عنهم، والصَّدقة، وذكر محاسنهم ونشر فضائلهم وبطولاتهم، والكفُّ عن مساويهم وعيوبهم إلى غير ذلك من الآداب الشَّرعيَّة الَّتي حثَّ الإسلام على مراعاتها مع إخواننا المسلمين الأحياء منهم والميِّتين

نسأل الله عز وجل جميل الخاتمة وحسن العاقبة، والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، والحمد لله ربِّ العالمين.

❁❁❁





مسائل منهجية



قطف الثمار من أثر مالك في لزوم السُّنَّة

■ ياسين شوشار
إمام. الجزائر

كان مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ عالمًا أثريًّا وإمامًا سنِّيًّا شديدَ الحرص على الاتِّباع وترك الابتداع، ومن الأمور الدَّالَّة على ذلك وهي كثيرة، أقواله الَّتي صارت كالقواعد الذَّهبيَّة، والموازين الدَّقيقة.

من أقواله:

ومن آثاره الجليلة المتداولة عند أهل العلم هذا الأثر الذي رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (336/7) والهروي في «ذمِّ الكلام وأهله» (81/5) عن ابن وهب قال: «كنَّا عند مالك فذكرت السُّنَّة، فقال مالك:

«السُّنَّةُ سفينة نوح؛ مَنْ ركبها نجا، وَمَنْ تخلَّف عنها غرق».

وذكره ابن تيميَّة في «العقيدة الأصفهانيَّة» (166/1) وفي «مجموع الفتاوى» (137/4) وفي مواضع كثيرة منه.

وذكره السُّيوطي في «مفتاح الجنَّة» (ص46).

□ في هذا الأثر بيان مكانة السُّنَّة النَّبويَّة وبيان أنَّ «في لزوم سنَّته ﷺ تمام السَّلامة وجماع الكرامة، لا تطفأ سُرُجُها ولا تدحض حججها من لزمها عصم ومن خالفها ندم؛ إذ هي الحصن الحصين، والرُّكن الرَّكين الَّذي بان فضله ومتن حبله، من تمسَّك به ساد ومن رام خلافه باد، فالمتعلِّقون به أهل السَّعادة في الآجل والمغبوطون بين الأنام في العاجل»[1].

والسُّنَّة: تطلق ويراد بها الحديث إذا عطفت على الكتاب، وتُطلق في مقابل البدعة، وتُطلق ويكون معناها ما جاء الأمر به على سبيل الاستحباب، لا الوجوب، وتطلق ويراد بها كلُّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة وهو المقصود بهذا الأثر؛ لأنَّ ركوبَ السَّفينة يمثِّلُ لزوم دين نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذي من لزمه نجَا ومن تخلَّف عنه هلك.

فالسُّنَّة هي الطريقة الَّتي كان عليها النَّبيُّ ﷺ، فهي تشمل بهذا المعنى الإسلام، يقول ابن رجب: «والسُّنَّة هي الطَّريقة المسلوكةُ، فيشمل ذلك التَّمسُّك بما كان عليه هو وخلفاؤه الرَّاشدونَ مِنَ الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السُّنَّةُ الكاملةُ، ولهذا كان السَّلف قديمًا لا يُطلقون اسم السُّنَّة إلاَّ على ما يشمل ذلك كلَّه»[2].

فهذه هي السُّنَّة الَّتي يجب اتِّبَاعُها ويُحمد أهلُها، ويُذمُّ من خَالَفها؛ ومن أجل هذا يقال: فلان من أهل السُّنَّة أي من أهل الطَّريقة الصَّحيحة المستقيمة المحمودة، أي: على الهدي الَّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه؛ علمًا واعتقادًا، وقولاً، وعملاً.

وكلَّما كان نصيب العبد من طاعة النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ والأخذ بسنَّته والاستمساك بها أكمل؛ كان حظُّه من الاهتداء أتَمَّ، والعكس بالعكس، فإنَّ الإنسان يفوته من الاهتداء بقدر ما فاته من السُّنَّة علمًا وعملاً.

ولأجل هذا قال مالك: «السُّنَّة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلَّف عنها هلك».

وتأمَّل في هذا التَّمثيل؛ فإنَّ سفينة نوح إنَّما ركبها من رضيَ به رسولاً، فصدَّقه وآمن به واتَّبعه، فحصلت له السَّلامة والنَّجاة في الدُّنيا من الغرق وهو من النَّاجين من المفاوز والأهوال يوم القيامة، وأمَّا من كذَّبَ نوحًا وسَخِرَ منه وعاداه وكفر به وأبى الرُّكوب معه؛ فإنَّه كان من المُغْرَقين في الدُّنيا وهو في الآخرة من الخاسرين الخسران المبين، هكذا اتِّباع السُّنَّة؛ فإنَّ اتِّباعها يمثِّل اتِّباع الرِّسَالة الَّتي جاءت من عند الله،

(1) قاله ابن حبَّان في «صحيحه» (102/1).
(2) «جامع العلوم» (293/1).

وتابعُهـا بمنزلة من ركـب مع نوح عليه السلام السَّـفينة باطنًـا وظاهـرًا، والمتخلِّف عن اتِّباع الرِّسـالة بمنزلة المتخلِّف عن اتِّباع نوح عليه السلام وركوب السَّفينة معه.

وتمثيـل السُّـنَّة بسفينة نوح يدلُّ على سعـة علمه، فتشبيهـه لهـا بذلـك تشبيـهٌ بليـغٌ ووصفها بهـا وصف عظيم يدلُّك على ذلك ما يلي:

□ إنَّ سـفينة نوح كانت كبيرةً تجمع ركَّابهـا، وقويَّـةً تقيهم من الغـرق. بإذن الله تعالى. سـاعةَ تلاطم أمـواج البحار الَّتـي هـي مـن أعظـم الفتن الحاصلـة لمن ركـب البحر، قـال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: 65]، حتَّى يُسْـلِمَهُم من الغرق الَّـذي بات وشـيكًا، فكما أنَّ سـفينةَ نوح تعصـم ركابها من الغـرق فكذلكم لزوم السُّنَّة يضمن النَّجاة من الفتن والشُّرور.

فعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْـتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّـا أَضَـاءَتْ مَا حَوْلَهَـا جَعَـلَ الفَرَاشُ وَهَـذِه الدَّوَابُّ الَّتـي فِي النَّـارِ يَقَعْنَ فِيهَا وَجَعَلَ يَحْجُزُهُـنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا» قَـالَ: «فَذَلِكُـمْ مَثَلِـي وَمَثَلُكُـمْ أَنَـا آخِـذٌ بِحُجَزِكُـمْ عَنِ النَّـارِ هَلُمَّ عَـنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا»[3].

قـال الحافـظ: «وفي الحديث ما كان فيه صلى الله عليه وسلم مـن الرَّأفـة والرَّحمة والحرص علـى نجـاة الأمَّـة كمـا قـال تعـالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]»[4].

□ □ □

□ إنَّ سـفينة نوح جمعت ركابها على قائد واحدٍ حكيم، ولا يتَصوَّر عاقل سفينةً يتنازعها ربَّان يُكتَب لها اسـتقرار وثباتٌ بذلك التَّنـازع والاختلاف، فهذا هو حال سـفينة نوح، قائدها نـوح عليه السلام، وهكذا السُّنَّة هي الطَّريق الموصل إلى الله باتِّباع النَّبـيِّ ولـزوم هديه وهي بذلك عاصـمةٌ للمنتسـبين إليها من الاختلاف والفرقة، وهما أعظم العلامات الدَّالَّة على ضـعف الأمَّـة وذلَّتها، ومعلـوم أنَّ الاختلاف أقلُّ خطـرًا مـن الفُرقَـة، ومع ذلـك فهو من جملـة الشَّـرِّ الَّذي بيَّن النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم سـبيل الخلاص منه لسوء عاقبته، وعظيم أثره في تشتُّت الأمَّة وحصول المهانة.

وقـد أخبر صلى الله عليه وسلم أنَّه سـيكون اختلافٌ كثـيرٌ بـيِّنٌ وواضـحٌ، كلُّـه اختـلافٌ عمَّا كانت عليـه سـنَّته صلى الله عليه وسلم، فأوصـى فقال: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ».

فإذا حصـل الاختـلاف بينهم وجب عليهم الرُّجوع إلى سـنَّة المصطفى وسنَّة الخلفـاء الرَّاشـدين؛ فـإنَّ فيهَـا النَّجاةَ والسَّلامة.

وتأمَّل كيـف لم يـترك أمَّته صلى الله عليه وسلم من غـير تحذيرها مـن الاختـلاف، وأعظم من ذلك أنَّـه لم يَكِل أمر هـذه الأمَّة إلى آراء الرِّجـال في معالجـة الأوضـاع، بـل أرشـد إلى سـنَّته وسـنَّة الخلفـاء الَّذين هـم ورثته صـدقًا وعـدلاً، يقول الشَّـيخ صالح آل الشَّيخ في «شرحه على الأربعين» (ص215): «ولم نرَ مسـألةً من المسـائل الَّتـي من أجلهـا اخْتَلَـفَ النَّاس في تاريخ الإسـلام كلِّه، من أوَّله إلى يومنا هذا إلاَّ وفي السُّـنَّة بيانُها، لكن يؤتـى النَّاس من جهة أنَّهم لا يرغبون في السُّنَّة، لا يرغبون في امتثال وصـيَّة المصـطفى وأمره ونهيه وبيانه. عليه الصَّلاة والسلام ».

وإذا كانـت السُّـنَّة هـي سـبيل نجاة الأمَّـة مـن الاختـلاف الَّـذي هـو دون الافـتراق، فهـي الحصـن الحصـين الَّذي مـن دخله كان من الآمنين، سـاعةَ حصـول التَّنازع والافتراق الَّذي هو أشرُّ مـن الاختلاف، وهذا مـا تثبته هذه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال].

فالاختـلاف والافـتراق عن صـاحب السَّفينة علامة على الهلاك، وأمارةٌ على الخسـران، ومَـنْ ركبها نجـا بمطاوعته للسُّـنَّة ولزومه لها، مَنْ تخلَّف عنها غرق بمخالفتها والافتراق عنها.

□ □ □

□ وهـذه السَّـفينة تمثِّل الضَّـمان الأوحـد للبقاء على الطَّريق المرسـوم لها في هـذه الرِّحلـة وهكـذا هي سـنَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، لزومُهـا تحصـيلٌ لمنهـج الهدايـة والسَّـلامة من الضَّـلال، وعدم الزَّيغ أو الانحراف.

فعـن أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَـنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَـا؛ كِتَـابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**»[5].

والَّذي ينبغي أن نعلمه أنَّ «سبب ظهور البدع في كلِّ أمَّة، هو خفاء سنن المرسلين فيهـم، وبذلك يقع الهـلاك، ولهذا كانوا يقولون: الاعتصـام بالسُّـنَّة نجـاةٌ، قال مالـك رحمه الله: «السُّـنَّة مثـل سـفينة نوح، من ركبهـا نجا ومن تخلَّـف عنها هلك»، وهذا حـقٌّ؛ فإنَّ سـفينةَ نوح إنَّمـا ركبها مَنْ صَدَّقَ المرسـلين واتَّبعهم، وأنَّ من لم يركبها فقد كذَّبَ المُرسَلين، واتِّباع السُّنَّة هـو اتِّبَاعُ الرِّسَـالة الَّتي جـاءت من عند

(3) رواه البخاري (6483) ومسلم (2284) واللَّفظ له.

(4) «فتح الباري» (11/318).

(5) أخرجـه الحاكم (1/172)، وصـححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم 2937)».

الله، فتابعُها بمنزلة مَنْ رَكِبَ مع نوح السَّفينةَ باطنًا وظاهرًا، والمتخلِّف عن اتِّباع الرِّسالة، بمنزلة المتخلِّف عن اتِّباع نوح عليه السلام وركوب السَّفينة معه»(6).

كتب رجلٌ إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: «أمَّا بعدُ، أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره، واتِّباع سنَّة نبيِّه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعدَ ما جَرَتْ به سنَّتُه، وكُفُوا مؤنَتَه؛ فعليك بلزوم السُّنَّة فإنَّها لك بإذن الله عصمةٌ»(7).

□ □ □

□ إنَّ سفينةَ نوح إنَّما سلَّم الله ركابَها لأجل انتسابهم لنوح عليه السلام، وما أهلك من تخلَّف عنها إلاَّ لأجل استغنائهم عن دين نوح وعزوفهم عنه، فلمَّا رغبوا عن دينه وتخلَّفوا عن الرُّكوب معه، عمَّهم الهلاك، وغرق حتَّى مَنْ كان مِنْ نَسَبِه ولم يكن من أتباعه، قال الحقُّ تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ [هود]، وهكذا في لزوم السُّنَّة دليل على صحَّة الانتساب لدين النَّبيِّ ﷺ، وبذلك السَّلامة والنَّجاة، وفي تركها خروج عن اسم الرَّسول ﷺ، وبذلك الشَّرُّ والفساد.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: جاء ثلاثةُ رهط إِلَى بُيُوت أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**(8).

قال الحافظ ابن الحجر في شرح الحديث (105/9): «قوله: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»، المراد بالسُّنَّة الطَّريقة، لا الَّتي تقابل الفرض، والرَّغبة عن الشَّيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس منِّي».

وقال ابن تيميَّة رحمه الله: «أي: سلك غيرها ظانًّا أنَّ غيرَها خيرٌ منها، فمن كان كذلك فهو بريءٌ من الله ورسوله، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130]، بل يجب على كلِّ مسلم أن يعتقدَ أنَّ خيرَ الكلام كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّد ﷺ كما ثبت عنه في «الصَّحيح» أنَّه كان يخطب بذلك كلَّ يوم جمعة»(9).

ومن وزن نفسه بقوله **«فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»** أدرك قيمةَ هذا التَّمثيل من الإمام مالك، فحظُّ كلِّ إنسان من الخير حظُّه من هذه السُّنَّة، وحظُّ كلِّ إنسانٍ من الشَّرِّ حظُّه من هذه الرَّغبة والانصراف عنها.

□ □ □

□ لقد كانت سفينةُ نوح تمثِّل الأمان لركابها من الشَّيطان وكيده ووساوسه، فهم على الرُّغم من كثرة المستهزئين والسَّاخرين، بل وحتَّى المشكِّكين، ووجود المناوئين لم يتخلَّفوا عن نُوح عليه السلام فحصلت لهم السَّلامة والنَّجاة، بخلاف من أثَّرت فيه سهام إبليس ووساوسه، وتحرَّكت نفسُه لاستهزاء المستهزئين وطعن الطَّاعنين؛ فإنَّهم تخلَّفوا عن نوح، ويتخلَّفون في كلِّ وقت وحين، وكما أنَّ سفينةَ نوح كانت حرزًا وأمانًا لأهلها من الشَّيطان؛ فكذلك في اتِّباع السُّنَّة الفكاك من سُبُل الشَّيطان وبخاصَّة في زمن الغربة، حيث السُّنَّة بدعةٌ والبدعة سنَّةٌ، إذا تركت البدعة قال النَّاس: تُركت سنَّة.

فعن عبد الله بن مسعود قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثمَّ قال: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله وقال: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» ثمَّ قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153]»(10).

قال ابن تيميَّة: «فالعبادات والزَّهادات والمقالات والتَّورُّعات الخارجة عن سبيل الله ـ وهو الصِّراط المستقيم الَّذي أمرنا الله أن نسأله هدايتهُ وهو ما دلَّ عليه السُّنَّة ـ هي سبل الشَّيطان...»(11).

فسبل الشَّياطين كلُّها قصيرةٌ، يغرِّر بها من تبِعَه فيتوهَّمون أنَّها تؤدِّي إلى النَّتيجة سريعًا! ولكن: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾ [فاطر].

وسبيل السُّنَّة سبيلٌ طويلٌ، ولكنَّه طريقٌ آمنٌ وفيه الفكاك من سبل

(6) قاله ابن تيميَّة رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (137/4).
(7) رواه أبو داود (4612) وصحَّحه الألباني.
(8) متَّفقٌ عليه.
(9) «مجموع الفتاوى» (201/11).
(10) رواه أحمد (4142)، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنَّة» (16).
(11) «المجموع» (617/11ـ618).

الشَّـياطين، يوصلك إلى بـرِّ الأمـان وشـاطئ السَّـلامة والنَّجـاة، فعليـك أن تتَّبعـه وأن تَسْـلُكَه وأن تتواصـى فيـه مع إخوانـك بالحـقِّ وأن تتواصـى فيه معهم بالصَّبر.

قـال ابن باديس: «كمـا علينا أن نتَّبع سـبيل الرَّسـول - عليه وعلى آله الصَّلاة والسَّـلام - الَّتـي جـاء بهـا مـن عند الله تعـالى، وهي الإسـلام، كذلـك علينا أن نتَّبع سـبيلَه في القيام بشـرائع الإسـلام علمًا وعملاً: في أبـواب العبادات وأحكام المعامـلات، وفي تطبيق أصـول الإسـلام وفروعـه على الحيـاة العامَّة والخاصَّـة، وهذه هـي سـنَّتُه الَّتي كان عليهـا، وكان عليهـا أصـحابه، وأهـل القـرن الثَّـاني مـن التَّابعـين، وأهـل القـرن الثَّالث من أتبـاع التَّابعين؛ تلك القرون المشـهود لها بالخيريَّة على غيرها بلسان المعصوم ﷺ.

وكمـا أنَّ مـن عدل عن الإسـلام ولم يسلُكْ سبيلَه وقع في ضلال الكفر، كذلك من عدل عن السُّنة ولم يسلك سبيلها وقع في ضلال الابتداع.

وكما أنَّ من لم يتَّخذ مع الرَّسول سبيل الإسلام يندمُ أشدَّ النَّدم ويتحسَّر أعظم الحسـرة على ما كان من تفريطه؛ كذلك من لم يتَّخذ مع الرَّسـول سبيل السُّنَّة، إذ كلٌّ منهما قد ظلم نفسه، وفرَّط في سبيل نجاته»[12].

□ □ □

□ إنَّ سـفينةَ نـوح ترمز إلى ملازمة مـا جـاء به نـوحٌ مـن ديـن ربِّ العالمين، وطاعته في كلِّ ما أخبر به على الرُّغم من تثبيط المثبِّطين وسخريَّة السَّاخرين؛ لأنَّه المبلِّـغ عـن الله، وأنَّه لـولا اتِّباعه عليه السلام ما حصلت السَّـلامة لا في الأفهام ولا في الأبدان، فباتِّباع السُّـنَّة تحصل السَّلامة والنَّجاة.

فعن أبي موسـى عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلِـي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِـيَ اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُـلٍ أَتَـى قَوْمًا فَقَالَ يَـا قَـوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَـا النَّذِيرُ العُرْيَانُ فَالنَّجَـاءَ؛ فَأَطَاعَـهُ طَائِفَـةٌ مِـنْ قَوْمِـهِ فَأَدْلَجُـوا، فَانْطَلَقُوا عَلَـى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْـبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَـانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ» رواه البخاري - واللَّفظ له - ومسلم.

قـال الطِّيبي فيما نقلـه عنه الحافظ ابـن حجـر: «شـبَّه ﷺ نفسَـه بالرَّجـل وإنـذارَه بالعذاب القريـب بإنذار الرَّجل قومَه بالجيش المصـبح، وشبَّه من أطاعه من أمَّته ومن عصـاه، بمـن كذَّب الرَّجل في إنذاره ومن صدَّقه»[13].

ومتابعته ﷺ مقتضـاها الاقتداء به في أقوالـه وأفعاله علـى الوجه الَّذي جاء به مـن وجوب أو نـدب مع توفُّر القصـد والنِّيَّة في متابعته والتَّأسِّي به ﷺ.

فالطَّريـق الأوحـد - إذن - إلى معرفة عبادة الله وما شـرعه لعبـاده هو طريق الاتِّبـاع للرَّسـول ﷺ، ولـزوم سـنَّته، ولذلـك قال رسـول ﷺ كمـا في حديث عائشـة رضي الله عنها: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**[14]، وفي رواية لمسـلم قال: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**.

ورضي الله عن الصَّحابة الكرام أهل التَّأسِّي به والاقتداء بسنَّته صدقًا وعدلاً؛ فإنَّهـم كانوا أحرصَ النَّاس على تحقيق المشـاكلة والمتابعة للنَّبـيِّ ﷺ، ومن ذلك مـا جاء في «الصَّـحيحين» عـن عمر ابن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه قبَّل الحجرَ الأسـود وقـال: «... إِنِّي لأُقَبِّلُـكَ وَإِنِّي لأَعْلَـمُ أَنَّكَ حَجَـرٌ لاَ تَضُـرُّ وَلاَ تَنْفَـعُ وَلَـوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ».

وفي لفـظ: «أَمَـا وَاللهِ إِنِّي لأَعْلَـمُ أَنَّـكَ حَجَـرٌ لاَ تَضُـرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَـوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبيَّ ﷺ اسْـتَلَمَكَ مَا اسْـتَلَمْتُكَ، فَاسْتَلَمَهُ»[15].

فاتِّباع سـنَّة الرَّسـول - عليه الصَّلاة والسَّـلام - ولزومهـا أخـذٌ بالدِّيـن كلِّـه، الَّـذي به قبول الأعمال الصَّـالحة، وعلى وفقـه تكون السَّـلامة والنَّجاة من المفاوز والمهالـك، فمـن ركبها نجا ومـن تخلَّف عنها هلك.

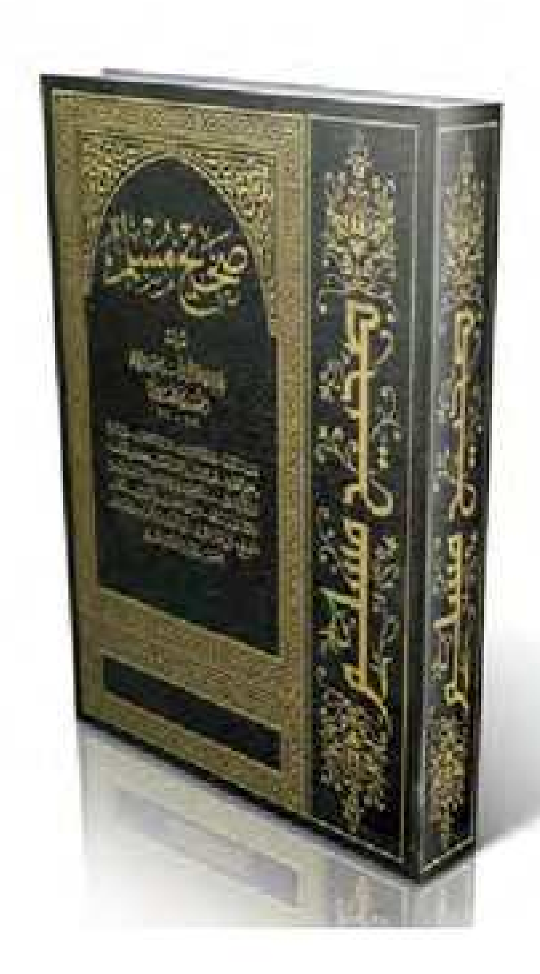
□ □ □

(12) «تفسير ابن باديس» (171/1).

(13) «فتح الباري» (317/11).

(14) متَّفقٌ عليه.

(15) رواه البخاري (1605).



مسائل منهجية

مسائل منهجية



□ إنَّ سفينةَ نوح كانت لركابها السَّلامةَ والأمانَ من الذُّلِّ والهوان الَّذي لَحقَ الغارقين بمخالفتهم لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلك اتِّباع سنَّة الرَّسول ﷺ فيها نجاةٌ لأصحابها من الذُّلِّ والهوان الَّذي لا يَلْحَقُ إلاَّ المتخلِّفين عن هذا الأسطول العظيم، الَّذي يشقُّ طريقَه إلى المقصود الأسنى بتؤدَةٍ وطمأنينة وسلامة وعافية، على الرُّغم من طول الطَّريق وكثرة الأهوال ووجود الفتن، وركابه لا يستبطئون السَّير ولا يسأمون ولا يملُّون من طول السَّفر وبُعد الطريق، لعلمهم أنَّهم إنَّما خُلقُوا للدَّار الآخرة الَّتي هي دار الحيوان ـ أي: الحياة الأبديَّة ـ، ولعلمهم أنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

وممَّا يدلُّ من السُّنَّة على أنَّ ترك السُّنَّة من أعظم ما يوصل إلى الذِّلَّة والمهانة ما جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[16].

ولا يتحقَّق الرُّجوع إلى الدِّين من دون الرُّجوع إلى ما كان عليه العمل زمن النَّبيِّ ﷺ، ومن دون العودة إلى ما صلح به أوَّل أمرها، وهو شرط سلامة الأمَّة من سمة الذُّلِّ والهوان.

□ □ □

□ إنَّ في سفينة نوح عصمةً لأهلها من الأعداء؛ لأنَّ التَّخلُّف عنها يساوي الخلود إلى الأرض واتِّباع الشَّيطان وهكذا هي السُّنَّة سلامةٌ لأهلها من تداعي الأمم.

فقد أخرج أحمد (22397) وأبو داود (4297) وصححه الألباني عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**»، فقال قائل: ومن قلَّة نحن يومئذ؟ قال: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهْنَ**»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**».

لقد شخَّص رسول الله ﷺ المرضَ العُضَالَ الَّذي يُصيب هذه الأمَّة، على الرُّغم من اتِّساع رقعتها وكثرة المنتسبين إليها، ساعةَ ابتعادها عمَّا جاء به ﷺ، وبيَّن أنَّه الوَهْنُ، ثمَّ شرح أعراضه الظَّاهرة وأسبابه القريبة والبعيدة، وهي حبُّ الدُّنيا، والتَّعلُّق بها، والافتتان بزينتها، والسَّعي وراءها، وقصر الآمال عليها، واعتبارها المبدأ والمنتهى، وحبُّ الاستزادة من البقاء فيها، وبالتَّالي كراهية الموت؛ لأنَّه يقطع هذه الآمال والأمانيَّ.

هكذا يكشف الرَّسول ﷺ أعراض الوهن الَّذي يبدأ من الفرد، وينتهي بالمجتمع، هذا المرض الَّذي يصيب الأمم والشُّعوب فيقضي على كيانها، ويسقط هيبتها، ويمحو أثرها، ويزلزل أركانها، فتهوي من عليائها إلى أن تصبح لقمةً سائغةً للطَّامعين فيها، بل يكثر الأكلةُ حولَها، ويجتمعون على اقتسامها والقضاء عليها، كما يجتمع الجياع حول الطَّعام ليتناولوه، ويقتسموه، فلا يرفعون أيديهم عنه، وفي القصعة أثر لوجوده.

وما دام المسلمون اليوم يجهلون السَّفينة الَّتي تحملهم، وهم نائمون عن الرِّياح الَّتي تتقاذفهم في هذا البحر اللُّجِّيِّ، وفي هذه الظلمات الَّتي بعضها فوق بعض، إذا أخرجوا أصابعهم لا يكادون يرونها من كثرة الحجب الكثيفة، ما داموا كذلك فإنَّ الذُّلَّ والهوان والتَّداعي سيستمرُّ بهم، حتَّى ترجع الأمَّة أفرادًا وجماعات، حكَّامًا ومحكومين إلى الكتاب والسُّنَّة على فهم السَّلف الأوَّلين.

(16) أخرجه أبو داود (3462) وغيره، وهو مخرَّج في «الصَّحيحة» (رقم 11).

قال ابن باديس: «لا نجاة لنا من هذا التِّيه الَّذي نحن فيه، والعذاب المنوَّع الَّذي نذوقه ونقاسيه إلاَّ بالرُّجوع إلى القرآن، إلى علمه، وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتَّفقُّه فيه وفي السُّنَّة النَّبويَّة شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد، وصحَّة الفهم، والاعتضاد بأنظار العلماء الرَّاسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن ربِّ العالمين، وهذا أمرٌ قريبٌ على من قرَّبه الله عليه، ميسَّر على من توكَّل على الله فيه»[17].

□ إنَّ سفينة نوح ترمز لقوَّة الإيمان الموجب للفلاح والسَّعادة الأبديَّة، وكذلك فإنَّ باتِّباع السُّنَّة ولزومها يتحقَّق الإيمان الموجب للسَّعادة في الدُّنيا والأخرة.

ذلك لأنَّ ملازمةَ سنَّته وطاعته هي بمثابة الضَّمان الآكد للهداية في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: 54]، وهذه الهداية موصلةٌ إلى جنَّات النَّعيم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء]، ومعصيته ﷺ تؤدِّي إلى سواء الجحيم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء]، وهذا كلُّه يبيِّنُه حديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى**»، قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[18].

قال الحسن البصري رحمه الله: «ابنَ آدم! لا تغترَّ بقول من يقول: المرء مع من أحبَّ، إنَّه من أحبَّ قومًا اتَّبعَ آثارَهُمْ، وَلَنْ تَلْحقَ بالأبرار حتَّى تَتَّبِعَ آثَارَهُمْ، وَتَأْخُذَ بهَدْيِهِمْ، وَتَقْتَدِيَ بِسُنَّتِهِمْ وَتُصْبِحَ وَتُمْسِيَ وأَنْتَ عَلى منهجهم، حريصًا علَى أَنْ تكونَ منهم، فتسلكَ سبيلَهم، وتأخذَ طريقَهم، وَإِنْ كنتَ مقصِّرًا في العمل؛ فإنَّمَا ملاَكُ الأَمْرِ أن تكون على استقامة، أَمَا رأيتَ اليهود، والنَّصَارَى، وأهلَ الأهواء المُرْدِيَة يُحِبُّون أنبيَاءَهم ولَيْسُوا مَعَهُمْ؛ لأنَّهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقهم فصار موردُهُمُ النَّار، نعوذ بالله من ذلك»[19].

□ سفينة نوح تمثِّل الحياةَ الحقيقيَّةَ؛ لأنَّها كانتْ نجاةً لأصحابها من الغرق في الدُّنيا قال تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود]، وهي نجاةٌ لأصحابها من الغرق في عذاب النَّار ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم] وكذلك ما جاء به النَّبيُّ ﷺ فيه حياة القلوب والأبدان، حياة الأبدان بعصمتهم من القتل، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله**»[20].

وحياة القلوب كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 12].

قال ابن كثير: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن الَّذي كان ميتًا، أي: في الضَّلالة، هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفَّقه لاتِّباع رسله، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي: يَهْتَدي به كيف يسلك، وكيف يتصرَّف به...»[21].

فانظر إلى منزلة السُّنَّة العظيمة، الَّتي هي كسفينة نوح؛ من لزمها نجا وسلم ومن تركها هلك وغرق، ولعلَّ في هذا الأثر فوائدَ أخرى لم نُعَرِّج عليها، تدرك بالتَّأمُّل والتَّدبُّر، ولكن حسبنا ما ذكرنا؛ فإنَّ فيه كفايةً وبه تحصل الهداية.

«وإذا كانت سعادة العبد في الدَّارين معلَّقةً بهدي النَّبيِّ ﷺ فيجب على كلِّ من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والنَّاسُ في هذا بين مستقلٍّ ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاءُ والله ذُو الفضل العظيم»[22].

□ □ □

---

(17) «تفسير ابن باديس» (175/1).

(18) رواه البخاري (7280).

(19) «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» ضمن «مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي» (378/3 ـ 379).

(20) رواه البخاري ومسلم.

(21) «تفسير ابن كثير» (330/3).

(22) قاله ابن القيِّم كما في «الزَّاد» (69/1).

جديد منشورات دار الفضيلة ـ الطبعة الثانية



جديد سلسلة مطويات الفضيلة











حي باحة (03)، رقم (28) الليدو

المحمدية - الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

(جوال):

(0559) 06 99 92

التوزيع (جوال):

(0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com



الشَّوق إلى رؤية النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

د.عبد الرزاق البدر
المدينة النبوية

من يطالع شمائل خير الورى وسيرة سيِّد الأوَّلين والآخرين أكمل عباد الله عبادةً وأزكاهُم سيرةً وأرفَعُهم خُلُقًا، وأطيبُهم نفسًا، وأحسنُهم معاملةً، وأعظمُهم معرفةً بالله عز وجل وتحقيقًا لعبوديَّته؛ فلا شكَّ أنَّ الشَّوق يعظُمُ إلى الظَّفر برؤية صاحب هذه الشَّمائل، المخصوص بأجمل الصِّفات في هيئته البهيَّة، وطلعته الجميلة، ومُحيَّاه المُشرق، وصفاته العالية الرَّفيعة. صلواتُ الله وسلامُه عليه -، وقد صحَّ عنه ﷺ كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**» أي: يقدِّمُ أهلَه ومالَه في سبيل أن يَرى النَّبيَّ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - لشدَّة شوقه وعظم رغبته وحرصه على ذلك، ولا شكَّ أنَّ المسلمَ ينبغي أن تقُوم هذه الرَّغبةُ في قلبه، وهذا الشَّوقُ لرؤيته وللاجتماع به ﷺ في جنَّات النَّعيم.

ولا يكون هذا مجرَّد أمانيّ، أو خوضًا باطلاً في هذا الباب كبعض أهل الطَّرائق الباطلة، الَّذين يدَّعون دعاوى زائفَة لا أصلَ لها ولا أساسَ، تجرُّهم إلى ركام من الخرافات والبدع والضَّلالات.

بل الواجبُ أن يكون هذا الشَّوقُ دافعًا للمرءِ إلى التَّأسِّي به والاتِّباع لنهجه وسلوك طريقه - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -، وكثرة ذكره ﷺ وقراءة أحاديثه - الصَّلاة والسَّلام عليه ﷺ؛ ولهذا لمَّا قال له أحدُ الصَّحابة: يا رسُول الله أسألُك مرافقتَك في الجنَّة، قال: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[2] أي: عليكَ بطاعة الله، ولزُوم عبادته، فالأمر ليس مجرَّد أماني، وليس الإيمانُ بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي ولكنَّ الإيمانَ ما وقَر في القَلب، وصدَّقته الأعمال.

قال ابن القيِّم رحمه الله في كتابه «جلاء الأفهام»[3]: «العبد كلَّما أكثَر من ذكر المحبُوب واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبِّه تضاعفَ حبُّه له، وتزايَدَ شوقُه إليه، واستَولى على جميع قلبه، وإذا أعرضَ عن ذكره وإخطاره وإخطار محاسنه بقلبه نقَصَ حبُّه من قلبه، ولا شيءَ أقرُّ لعَين المحبِّ من رؤية محبوبه، ولا أقرَّ لقَلبه من ذكره وإخطاره محاسنه، إذا قوي هذا في قلبه جرى لسانُه بمدحه والثَّناء عليه وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحبِّ ونقصانه في قلبه» اهـ.

وذكرُ النَّبيِّ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - يكونُ بذكر مناقبه وشمائله الكَريمة وصفاته الحميدَة وأخلاقه وآدابه وهديه وسنَّته وسيرته، لتزداد القلوبُ محبَّةً له وليزداد العبدُ حرصًا على اتِّباعه والسَّير على منهاجه ﷺ، وعلى العبد في هذا الباب وغيره أن يحرصَ على الأخذ بالأحاديث الصَّحيحة الثَّابتة عن النَّبيِّ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -، وأن يلزمَ نهج الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أهل الاعتدال والقَوَام والوسطيَّة والخيريَّة؛ فيتلقَّى منهُم ما وصفُوا به النَّبيَّ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -، ولا يتجاوزه لا بغلوٍّ ولا بجفَاء، ولا بإفراط ولا بتفريط، بل يكونُ في هذا الباب قوامًا عدلاً وسطًا.

وهذا بابٌ خطير للغاية والحذر في هذا الباب يجب أن يكون من جهتين:

الأولى جهة التَّفريط، فلا يجفو الإنسانُ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ، والجفاء كلُّه مذموم، ولهذا الجفاء صُورٌ عديدةٌ، ومظاهر متنوِّعةٌ:

- فمن مظاهر الجفاء وصُوَره: ضعفُ محبَّته ﷺ في القُلوب، وتقديمُ محبَّة دنيا زائلة، وأهواء زائفة، وملذَّات فانية على محبَّته ﷺ، وقَد قَال - عليه

---

[1] رقم (2832).

[2] مسلم (489) من حديث ربيعة بن كعب رضي الله عنه.

[3] (ص525).

الصَّلاة والسَّلام ـ: «**فَوَالَّذي نَفْسي بيَدِه لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْه مِنْ وَالِدِه وَوَلَدِه وَالنَّاس أَجْمَعين**»[4]، وجاء في «صحيح البخاري»[5]: «**حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسكَ**»، ولمعرفة هذا الضَّعف يمتَحنُ المرءُ نفسَه في ضوء قَول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [سُورَةُ آل عِمْرَان].

▫ ومن مظاهر الجفاء: الإعراضُ عن سنَّته الغرَّاء، ومحجَّته البيضاء، وهَديه القَويم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، والانصرافُ عن ذلك بانشغالٍ بآراءٍ باطلة، وأهواءٍ فاسدة، ونحو ذلك من أمورٍ صرفت النَّاسَ عن سنَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ وهديه القَويم.

▫ ومن مظاهر الجفاء: عدم تعظيم أحاديث رسُول الله ﷺ، فتلقى أحاديثُه ﷺ المنيفة وكلماتُه الشَّريفة في بعض المجالس فلا يكونُ لها هيبةٌ، ولا يُرفع لها رأسٌ، ولا تُعرَف لها مكانةٌ، بل إنَّها تُمَرُّ كأحاديث غيره ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، بل ويُعترض عليها بـ (لِمَ، ولكن، وكيف...)، ونحو ذلك من الاعتراضات، فأين التَّعظيم لهذا الرَّسول الكريم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ؟! وأين المعرفة بقَدره ﷺ إذا كان حديثُه ـ شأنه عند النَّاس ـ كأحاديث غيره، وقَد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ].

▫ ومن صُور الجفاء: الانصراف عن قراءة سيرته المباركة وأخباره الشَّريفة المجيدة ﷺ؛ فإنَّ سيرتَه هي أزكَى سيرة على الإطلاق لأفضل وأكمل

(4) أخرجه البخاري (14، 15)، ومسلم (44).
(5) برقم (6632).

العباد سريرةً؛ إنَّها سيرةُ سيِّد ولد آدم ﷺ، فترى في النَّاس مَن هُو مُعرضٌ عن هذه السِّيرة المجيدة العَطرة، منشغلٌ بقراءة سيَر تافهينَ لا قيمةَ لهم، ولا وزنَ في عزِّ الأمَّة ورقيِّها، بل وفي قراءة سيَر أقوام لا خَلاقَ لهم عند الله ـ تبارك وتعالى ـ، فتَمضي أوقاتٌ وتُزهق ساعاتٌ في قراءة سيَر لا قيمةَ لها، مع غفلة تامَّة، وإعراض شديد عن سيرة سيِّد ولَد آدمَ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، فلا شكَّ أنَّ هذا من الجفاء في حقِّه وعدم المعرفة بقَدره ومكانَته ـ صلواتُ الله وسلامه وبركاتُه عليه ـ.

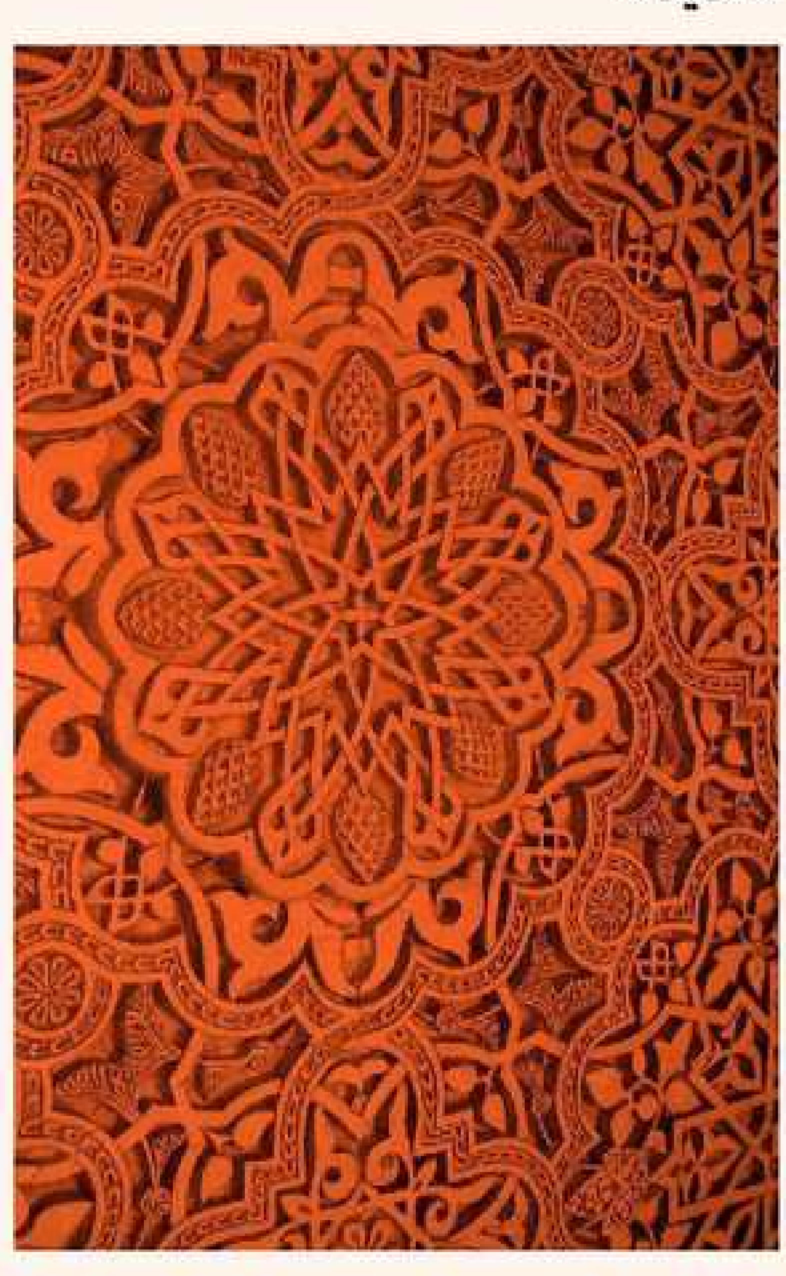
▫ ومن مظاهر الجفاء الشَّنيعة: الإقبال على البدع المُحدَثات والأهواء المختَرعات، وتعظيمُها، والذَّبُّ عنها، والاستدلالُ لها؛ في مقابل إعراض عمَّا جاء عن الرَّسول الكريم ﷺ، وقد صحَّ الحديثُ عنه ﷺ أنَّه قال: «**فَمَنْ رَغبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ منِّي**»[6]، وقال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[7]، وكانَ إذا خطب النَّاس يوم الجمعة يقول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الحَديث كتَابُ الله، وَخَيْرَ الهَدْي هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُور مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَة ضَلَالَةٌ**»[8].

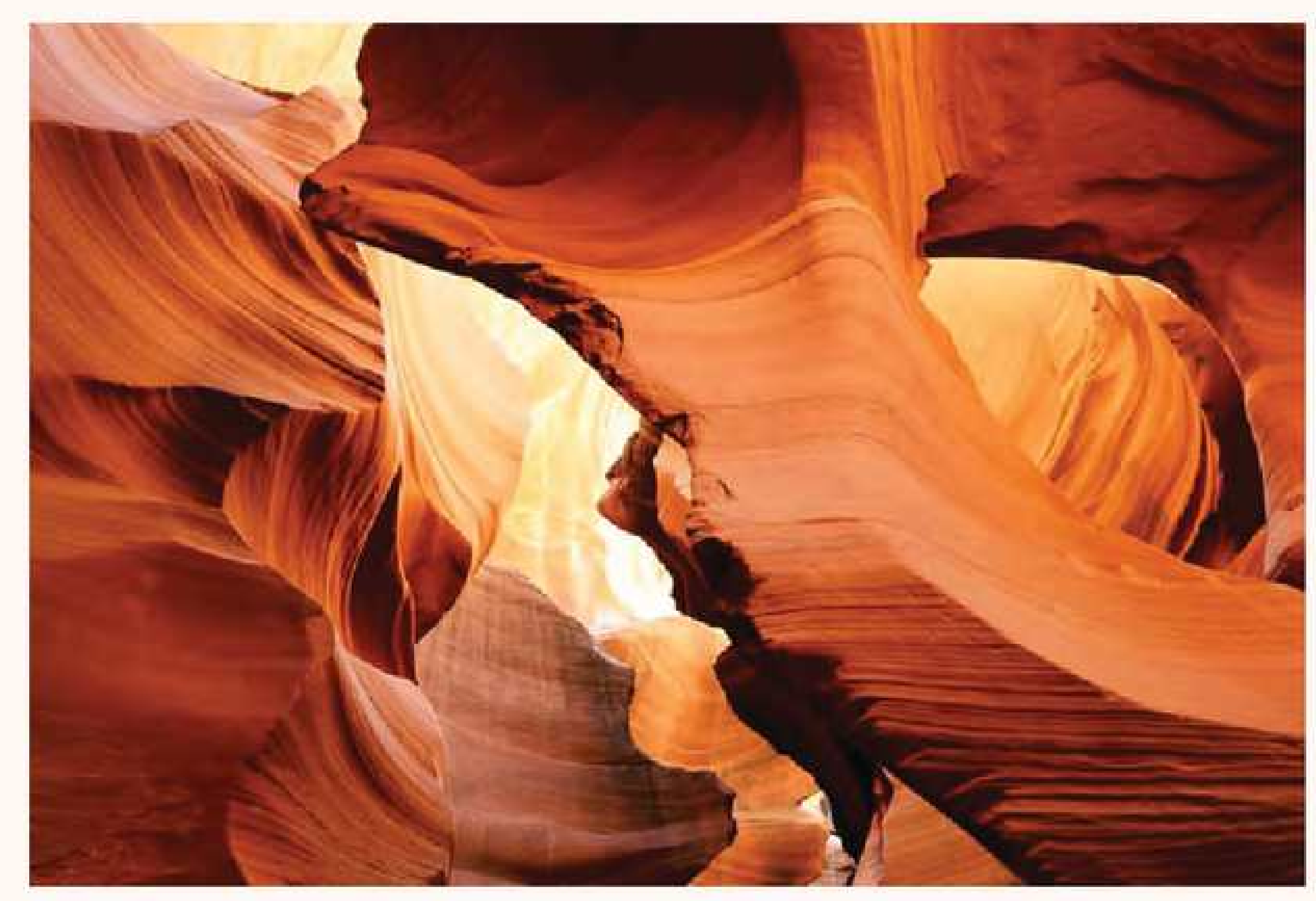
▫ ومن صور الجفاء في حقِّ النَّبيِّ الكريم ﷺ: عدم العناية بالصَّلاة والسَّلام عليه، ولاسيما عند ذكره، وقد صحَّ الحديث عنه في «مسند الإمام أحمد»[9] وغيره أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قال: «**البَخيل مَنْ ذُكرْتُ عنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»، اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد، وعلى آل محمَّد، كما صلَّيتَ على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم؛ إنَّك حميدٌ مجيدٌ، وبارك على محمَّد، وعلى آل محمَّد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم؛ إنَّك حميدٌ مجيدٌ، وكفى في هذا الباب قولُ ربِّنا ـ جلَّ شأنُه ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]، صلوات الله وسلامه عليه.

(6) أخرجه البخاري (5063)، ومسلم (1401).
(7) أخرجه البخاري (2697)، ومسلم (1718).
(8) أخرجه مسلم (867).
(9) رقم (1736).

▫ ومن صُور الجفاء في حقِّ نبيِّنا الكريم ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ: انتقاصُ مقام أصحابه الكرام، وتابعيهم بإحسان، وأئمَّة الحقِّ والهدى من حمَلَة السُّنَّة، وأنصار دين الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ فإنَّ الانتقاصَ لأقدار هؤلاء من الجفاء في حقِّ النَّبيِّ الكريم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

ونسألُ اللهَ ﷻ أن يعمر قلوبَنا أجمعين بمحبَّة نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، وبمعرفة قَدره العَظيم ومقامه الشَّريف ومكانته المُنيفَة ﷺ، وأن يُعيذنا أجمعين من مظاهر الجفاء، وصوره العَديدة.





والثَّانية جهة الإفراط: فلا يغلو أيضًا في حقِّه ـ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ بأن يضيف إليه من خصائص الرَّبِّ، أو أوصافه، أو حقوقه ـ جلَّ وعلا ـ؛ فإنَّ هذا كلَّه لا يرضاه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ، والغلوُّ والإطراء كلُّه مذموم، نهى عنه النَّبيُّ ﷺ في أحاديث كثيرة، قال ﷺ: «**لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[10]، وقال ـ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»[11]، ولمَّا سمع قومًا يقولون: أنت سيِّدُنا وابنُ سيِّدنا، قال: «**لا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشَّيْطَانُ**»[12].

ولهذا كان ـ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ يسدُّ الذَّرائع، ويحمي حمى الدِّين ويحوط جنابَه، وكان إذا سمع إطراءً له أو تجاوزًا للحدِّ في الثَّناء عليه ينهى عن ذلك؛ فإنَّه ﷺ لمَّا سمع رجلاً يقول: ما شاءَ الله وشئْتَ، غضبَ، وقال: «**بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[13]، وسمع امرأةً تقول:

«وفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدِ»

فغضب وقال: «**مَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلاَّ اللهُ**»[14].

فإطراؤه ـ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ، والغلوُّ في مدحه أمرٌ منهيٌّ عنه، بل إنَّ الخائض فيه تُردُّ أعمالُه عليه ويبوء بإثم المُخالفة؛ لأنَّ بابَ الثَّناء والمدح قد يأتي فيه الإنسانُ بمدائح صحيحة، وإذا زادَ في الأمر ربَّما استجراه الشَّيطانُ إلى أن يأتي بمدائح فيها غلوٌّ وإطراءٌ ومجاوزةٌ للحدِّ، وقد يكون الدَّافعَ إلى ذلكَ الحبُّ وإرادةُ الخير؛ ولكن ليس كلُّ مَن أرادَ الخير أدركَه، وليس كلُّ مَن بنى عمَلَه على الحبِّ يُصيب القَوام والسَّداد ما لم يزُمَّ هذا الحبَّ بزمام الشَّرع.

وبعضُ النَّاس ـ فعلا ـ وقعوا في هذا البَاب في مخالفات شنيعة، فأخذ بعضُهم يضيفُ إلى النَّبيِّ ﷺ أوصافًا لا تليق إلاَّ بالرَّبِّ ـ جلَّ وعَلا ـ، وقد قرأتُ مرَّةً لأحدهم يُثني على النَّبيِّ ـ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ في أبياتٍ منَ الشِّعر صدَّرها بقوله:

هو الأوَّل والآخر محمَّد

هو الظَّاهر والباطن محمَّد

مع أنَّ هذا القائل لو قرأ السُّنَّة لوجَد أنَّ النَّبيَّ ـ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ كما في حديث أبي هريرة كلَّما أوى إلى فراشه لينام قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ**»[15].

وآخر يقول في إطرائه للنَّبيِّ ـ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ وغلوِّه فيه:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به

سواك عند حلول الحادث العممِ

وإنَّ من جُودك الدُّنيا وضرَّتها

وإنَّ مِن علومك علمَ اللَّوح والقَلم

وكلُّ ذلكم من الخطأ البيِّن، والغلط الواضح، والإطراء المنهيِّ عنه في أحاديث صحيحة، ولو أنَّ هذا القائل قال مخاطبًا ربَّ العالمين:

يا خالق الخلق ما لي من ألوذ به

سواك عند حلول الحادث العممِ

وإنَّ من جُودك الدُّنيا وضرَّتها

وإنَّ مِن علومك علمَ اللَّوح والقَلم

لكان هذا من تمام التَّوحيد والإيمان، فلا يصحُّ أن تُضاف أوصافُ الرَّبِّ

(10) البخاري (3445).
(11) النَّسائي (3057)، وابن ماجه (3029).
(12) أبو داود (4806).
(13) أحمد (1964).
(14) البخاري (4001)، وابن ماجه (1897) واللفظ له، من حديث الربيع بنت معوذ رضي الله عنها.
(15) أحمد (9247) ومسلم (2713).

العظيم، وخصائص الخالق الجليل إلى أحد كائنًا من كان، ونبيُّنا - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ - نفسه لا يرضَى بذلك ويغضبُ أشدَّ الغضب منه، وإذا سمع أحدًا يضيف إليه شيئًا من خصائص الرَّبِّ غضب أشدَّ الغَضب، فينبغي على المسلم أن يحرص في هذا الباب أن لا تحمله عاطفتُه الجيَّاشة، وحبُّه للثَّناء على النَّبيِّ - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ - أن يغلَط فيصف النَّبيَّ - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ - بما هو من أوصاف الله عز وجل.

ثمَّ إنَّ من ابتلوا بالغلوِّ فيه - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، والإطْراء يصفون من لا يشاركهم في هذا الغلوِّ بأنَّه جافٍ في حقِّ النَّبيِّ - عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ -.

والحقُّ أنَّ من أنار اللهُ بصيرتَه وسدَّد رأيَه ووفَّقه لإصابة السُّنَّة والهدي القوام، يكون في هذا الباب عدلاً وسطًا:

وخيار الأمور أوساطها
لا تفريطُها ولا إفراطها

فلا يجفو في حقِّه - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ - فهو أكرم عباد الله وأفضلهم، وهو سيِّد ولد آدم ﷺ وقدوتهم، وحقُّه على الأمَّة حقٌّ عظيمٌ، ولا يغلو فيه فإنَّ الغلو مسلكٌ خطيرٌ ذميمٌ.

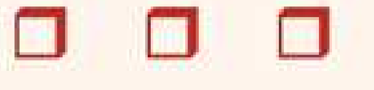
بل على العبد مع الحبِّ الشَّديد في قلبه والخير الَّذي يطمح إليه ويريد بلوغه أن يسدِّد ذلك بلزوم السُّنَّة والموافقة لهدي النَّبيِّ - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، وأن لا يجرَّه هذا إلى الجنوح إلى شيءٍ من تلك المخالفات والأهواء والبدع المحْدَثات، فيجني بذلك على نفسه.

وأيضًا فيما يتعلَّقُ بالشَّوق إلى رؤية النَّبي - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ - جاء في «الصَّحيح»[16] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ - يخاطب الصَّحابة -: «**وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد في يَده، لَيَأْتيَنَّ عَلَى أَحَدكُمْ يَوْمٌ**» - يخاطب الصَّحابة -: «**وَلا يَرَاني، ثُمَّ لأَنْ يَرَاني، أَحَبُّ إلَيْه مَنْ أَهْله وَمَاله مَعَهُمْ**»، قال النَّووي معلِّقًا تعليقًا مفيدًا: «ومقصود الحديث حثُّهم على ملازمة مجلسه الكريم، ومشاهدته حضرًا وسفرًا للتَّأدُّب بآدابه وتعلُّم الشَّرائع وحفظها ليبلِّغوها، وإعلامهم أنَّهم سيندمون على ما فرَّطوا فيه من الزِّيادة من مشاهدته وملازمته»[17].

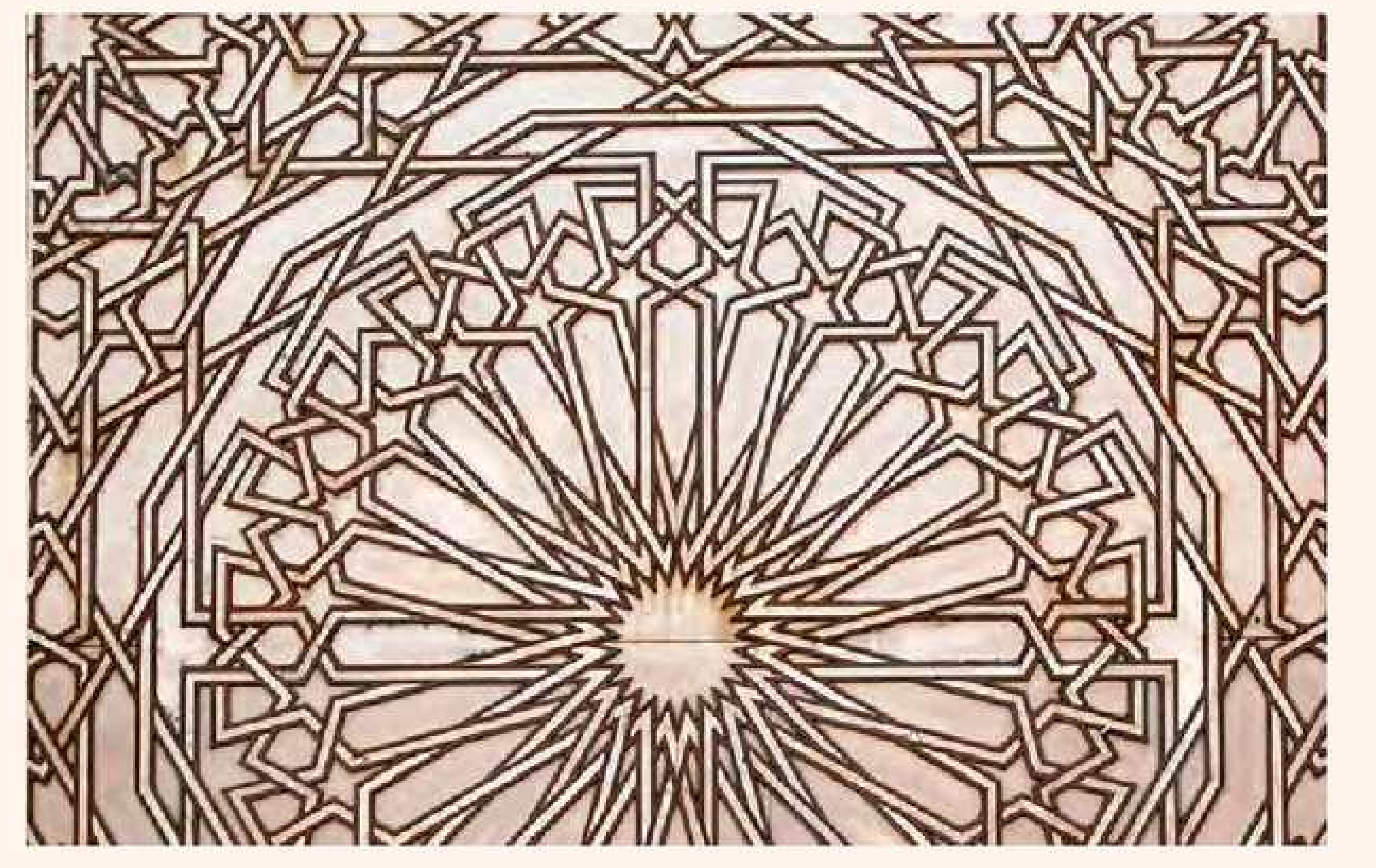
والشَّاهد أنَّ هذا الشَّوق إلى رؤيته ينبغي أن يكون من ورائه عملٌ جادٌّ في معرفة هديه وآدابه وأخلاقه ومعاملاته، ليأتسَّى به - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، وكلَّما كان العبدُ أحرص على السُّنَّة، وعلى هدي النَّبي ﷺ، وعلى التَّأدُّب بآدابه وأخلاقه كان أقرب إليه منزلةً، وقد قال - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ -: «**إن من أحبِّكم وأَقْرَبكُمْ منِّي مَجْلسًا يَوْمَ القيَامَة أَحَاسنَكُمْ أَخْلاَقًا**»[18]، فكلَّما كان العبدُ حريصًا على الإيمان والسُّنَّة والاتِّباع، والبعد عن البدع والأهواء كان ذلك أدعى وأحرى - بإذن الله عز وجل - أن يفوز برؤية النَّبيِّ - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، وأن يحظى بمجاورته في جنَّات النَّعيم.

نسأل الله جل وعلا أن يوفِّقنا لاتِّباع سنَّة نبيِّنا الكريم ﷺ، وأن يحشرنا معه، وتحت لوائه، وأن يجمعنا به في جنَّات النَّعيم؛ إنَّه - تبارك وتعالى - جوادٌ كريمٌ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم، وبارَك وأنعَم على عبده ورسوله، نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.



(16) أخرجه مسلم (2364).
(17) «شرح النَّووي على صحيح مسلم» (118/15).
(18) أخرجه الترمذي في «جامعه» (2018).



هذا أعظم ما فيه

■ مأمون بن القاسي العباسي

خصَّ الله ﷻ نبيَّنا ﷺ بجملة مكارم، تُثبت صدق نبوَّته، وشرف منزلته، ومن أجلِّها شأنًا وأعظمها فخرًا، إكرامه بالقرآن الكريم، كتابٌ يُتلى آناء اللَّيل وأطراف النَّهار، فيه خبر الأوَّلين، وبُشرى للمصدِّقين، ووعيد للمُكذِّبين.

وإنَّ كتابًا تكلَّم بآيه الرَّبُّ العظيم، ونزل به الرُّوح الأمين، على قلب سيِّد الأوَّلين والآخرين، في أعظم شهر، هو شهر رمضان، في أعظم ليلة هي ليلة القدر؛ لحريٌّ بكلِّ مؤمن أن يُنيخ المطايا عنده، ويجُلي فكره للنَّظر في آياته، وينهل من معينه الطَّاهر، وفيضه الزَّاخر.

وإنَّ قُرْءانًا تعجَّبت الجنُّ من عظمته فآمنت، وانطلقت تنذر قومها لحقيقٌ بالمؤمن أن يشغله همُّ التَّفكُّر فيه، ليحيا بذكره، قال الحقُّ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأحقاف].

إنَّه وعظ يشفي الصُّدور ويُلين الصُّخور، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة يونس].

ولا عجب اليوم أن نقرأ عن رجال سبقوا، كانوا بين عَبرة يَذرفونها، وتوبة يُظهرونها، بعد كلِّ آية يقرؤونها.

فتَّشوا عن مصادر قوَّة الإيمان فألْفوها في مُحكم الرَّحمن، ونقَّبوا عن اليقين فوجدوه بين آيات المتين، وأرادوا أن يُخمدوا جمرة الغضب، فعمدوا إلى كتاب أعجز العرب، وبحثوا عن الهداية والشِّفاء، فرأوهما في كلام إله الأرض والسَّماء، قال - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: 44]، وراموا إذعان القلوب؛ فلم تتكاءد أن تخضع لبيان علَّام الغيوب، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 23].

وما ابتغوه وجدوه فلمَ حصدوا هذا كلَّه؟

مكمن هذا العيش النَّضير، هو تدبُّر آي الحكيم الخبير، قرؤوا حروفه بقلوبهم وبصيرتهم، لا بألسنتهم وأبصارهم.

ولأنَّنا نقرأ القرآن فلا يُجاوز حناجرنا، ولا تستقرُّ حلاوته في وجداننا، غاب عنَّا أجلُّ ما فيه، وأسمى مسائل تدبُّر معانيه، ولم نَزَلْ على هذا الحال، حتَّى استبدلنا الَّذي هو أدنى بالَّذي هو خير، وكان المُصاب الجلل، قلوب تصدُّ عن فقه كلام ربِّها، وتركن إلى كلم أهل الحيف والزَّلل، من شعرٍ وطربٍ وقصصٍ وروايات، وإنشاد أبيات.

بل قد نسمع آياتٍ تدكُّ الجبال دكًّا، فتذرها قاعًا صفصفًا، ونحن نمتطي اللَّهو ونعتدُّه وننكمش في غيِّنا ونضحكه، قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة النجم].

ومن رَحِم هذه الحال المحزنة في تعاملنا مع كلام ربِّنا، خرجت هذه الكلمات لتُجيب عن كثير من التَّساؤلات: ماذا يعني تدبُّر آيات القرآن؟ وما أمارات التَّدبُّر المفيد؟ وكيف كان حال السَّلف مع القرآن؟ وما هو أهمُّ داعٍ إلى هجر التَّدبُّر؟ وكيف السَّبيل إلى تدبُّر آيات التَّنزيل؟ وما هي ثمرات التَّدبر الحكيم؟

❁❁❁



فماذا يعني تدبُّر آيات القرآن؟

التَّدبُّر كالتَّدبير لغةً: هو النَّظر في عاقبة الأمور[1].

واصطلاحًا: هو قريب من التَّفكُّر، إلاَّ أنَّ التَّفكُّر تصرُّف القلب بالنَّظر في الدَّليل، والتَّدبُّر تصرُّفه في النَّظر في العواقب[2].

ولئن كانت بين التَّفكُّر والتَّدبُّر حدود فارقة[3]، فإنَّ تدبُّر القرآن إمعان النَّظر في الدَّليل لفظًا ومعنًى، ثمَّ التَّطلُّع إلى عاقبة ومصير المخاطب فيه.

بل القرآن قد جمع بين إيراد الدَّلائل وبيان العواقب، والأوَّل طريق إلى الثَّاني، فمن أدام النَّظر في دلائل وحدانيَّة الله وقدرته، وإحاطة علمه، ودلائل طرق الهدى، وسُبل الضَّلال، ثمَّ أخلص الفكر، تبيَّنت له عاقبة كلِّ فريق، كونها مبنيَّةً على أخبار تلك الدَّلائل الواردة.

ونحو هذا: أن يقرأ المؤمن آيات ودلائل النِّعم، وهي كثيرةٌ تترى، حتَّى إذا تفكَّر فيها تفكُّر المتبصِّر، انجلت له حقيقة وجود الله، وعلم علم المتيقِّن عظمة المنعم وقدر النِّعم، ومصير المقرِّ المعترف بها، وعاقبة المنكر لها.

ما هي أمارات التَّدبُّر المفيد؟

ما أقبل عبد بقلبه على تلاوة كلام ربِّه، إلاَّ لاحت عليه علامات تُثبت صدق تدبُّره لهذا البيان العجيب، دلَّ ظاهر القرآن على أهمِّها، فمن ذلك: اقشعرار الجلد، ووجل القلب، وذُروف العين، قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 23].

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [سورة الأنفال].

قال الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾: «وهذه أحوال العلماء يبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتماوتون»[4].

هذه أماراته الصَّحيحة، وعلاماته النَّاصعة، وشواهده السَّاطعة، لا تكاد تعمى إلاَّ عن أهل العمى، ولا تستتَّر على من جعل همَّه الوقوف عند كلِّ آية يمتِّع بصره، ويُجلي فكره في تدبُّرها.

هذه بشائر لأولى الألباب، تروق لها أنفسهم، وتشرئبُّ لها أعناقهم، وتطمئنُّ بها أفئدتهم، غرَّتها هذه الطَّلائع، لتظهر بعد دوحة[5] ثمارها يانعة، وقطوفها دانية، تؤتي أُكلها كلَّ حين بإذن ربِّها.

فكيف كان حال الرَّعيل الأوَّل مع القرآن؟

عن عبد الله بن عروة بن الزُّبير قال: قلت لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قراءة القرآن؟ قالت: كانوا كما ذكرهم الله، أو كما وصفهم عز وجل، تدمع عيونهم، وتقشعرُّ جلودهم»[6].

كانت حياتهم بالقرآن به يحيون، ومن أجله يعيشون، يُمتِّعون أبصارهم بمرآه، ويغسلون أفئدتهم بماء آياته، فيُجلون عنها صدأ القسوة، ويفتحون أقفالها.

وإليك نُتفًا من أخبارهم، تُثبت لكلِّ ذي عقل ولبٍّ ما لهذا القرآن من المكانة العظيمة عند من فقه صدق أخباره، وامتثل أوامره، وانزجر بنواهيه.

عن عبد الله بن الشِّخير رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي وفي لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[7].

وفي خبر ابن الدَّغنّة: «أنَّ أبا بكر رضي الله عنه، ابتنى مسجدًا بفناء داره وكان يصلِّي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين، وأبناؤهم وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن»[8].

وقال علقمة بن وقاص: «صلَّيت خلف عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، فقرأ سورة يوسف، فكان إذا أتى على ذكر يوسف، سمعت نشيجه من وراء الصُّفوف»[9].

وقال القاسم بن محمَّد: «كنت إذا غدوتُ أبدأ ببيت عائشة رضي الله عنها، فأُسلِّم عليها فغدوت يومًا، فإذا هي قائمةٌ تسبِّح وتقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [سورة الطور]، تدعو وتبكي وتردِّدها، فقمت حتَّى مللت القيام، فذهبت إلى السُّوق لحاجتي، ثمَّ رجعت فإذا هي قائمةٌ تصلِّي وتبكي»[10].

وقال عبد الرحمن بن عجلان: «بتُّ عند الرَّبيع بن خثيم ذات ليلة، فقام يصلِّي فمرَّ بهذه الآية: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ

(1) «القاموس المحيط» (26/1).
(2) «التَّعريفات» للجرجاني (ص56).
(3) «الفروق اللُّغويَّة» لأبي هلال العسكري (ص75).
(4) «الجامع لأحكام القرآن» (6/258ـ259).
(5) الدَّوحة: الشَّجرة العظيمة.
(6) «شعب الإيمان» (1900).
(7) رواه أبو داود (904)، والتِّرمذي في «الشَّمائل» (276).
(8) رواه البخاري (3905).
(9) انظر: «المصنَّف» لابن أبي شيبة (36679).
(10) «السِّمط الثَّمين» (ص90).

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [سورة الجاثية]، فمكث ليلته حتَّى أصبح، ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاءٍ شديدٍ»[11].

هذا تعلُّقهم بحبالِه، وتفكُّرهم في آياته، وإنَّ أعظم الدَّواعي والأسباب إلى هجر تدبُّر كلام ربِّ الأرباب، استعصام القلب بحبِّ الدُّنيا، والرُّكون إليها وأُنسه إلى كلام المفتونين بها، خاصَّةً إذا تعلَّق القلب بكلام أهل الطَّرب والعبث والغناء، فالمصيبة أعظم، والبُعد أنأى.

قال ابن القيم رحمه الله: «شغلوا قلوبهم بالدُّنيا، ولو شغلوها بالله والدَّار الآخرة، لجالت في معاني كلامه، وآياته المشهودة، ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم، وطرف الفوائد، إذا غُذِّي القلب بالتَّذكُّر، وسُقي بالتَّفكُّر، ونُقِّيَ من الدَّغل رأى العجائب وأُلهِمَ الحكمة»[12].

وإذا تمكَّنت تلك الأسباب كانت النَّتيجةُ قلبًا قاسيًا مُتقاذفًا مُتنازحًا، لتُردفها المأساة العُظمى - خُلوُّه من محبَّة الله - فإذا حصل؛ لم تدخل محبَّة كلام مولاه إلى هذا المقام، إلاَّ كما يدخل الجمل في سَمِّ الخياط.

ولمَّا كان موطن التَّدبُّر هو القلب، قال الله مخاطبًا خطاب المستفهم العالم بالأسباب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [سورة محمد].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: «أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه»[13].

ومتى تعلَّق القلب بغير الله، واعتدَّ بسواه، وكان أُذنًا للأغاريد، أقفل أبوابه، وصدَّه عن تدبُّر كلام خالقه، قال الحقُّ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٢﴾ [سورة الزمر].

فلا تعجب إن حُرمت نعمة تدبُّر القرآن، وفي قلبك غير الملك الدَّيَّان، فاعمَد إلى أن يكون هذا المحلُّ الشَّريف لله وحده، ومن بعد تُرزق تدبُّر كلامه، والأنس به، والتَّلذُّذ بسماعه، والشَّوق إلى لقائه، واعلم أنَّ هذا الموطن لا يقبل شريكيْن في منزلةٍ واحدةٍ من المحبَّة والتَّوقير.

وكيف السَّبيل إلى تدبُّر آيات التَّنزيل؟

ما جدَّ المخلصون وقصد الصَّادقون غايةً أعظمَ من التَّفكُّر في آيات كتاب ربِّهم، وإنَّما تُطلب الغايات من أصحابها وأهلها، وأوضح السُّبل إلى نعمة التَّدبُّر؛ علمك أنَّها لا تُرجى إلاَّ من عند الله، فهو المتفضِّل بها عليك، ولا يُوصَل إلى الله وآياته بغير الله - تقدَّست أسماؤه - فانهض نهضةَ الشِّمِّير، وقفْ على بابه، واسأله سؤالَ الفقير، وذُلَّ الخاشع، وانكسار الخاضع، تُعطَ هذا الفضل في باقي أيَّامك.

ومن أوضح السُّبل: هجر ما اعتادت عليه النَّفس، وقطع العلائق والعوائق عنها؛ وما تعلَّق بالقلب من حبِّ الدُّنيا ولذَّاتها، والاطمئنان إلى حديث النَّاس وعيِّهم؛ إذِ الوصول إلى المطلوب متوقِّفٌ على تركها.

قال ابن القيم رحمه الله: «أن يكون همُّ المريد رضا ربِّه، واستعداده للقائه، وحزنه على وقت مرَّ في غير مرضاته، وأسفه على قربه، والأنس به، وجماع ذلك أن يصبح ويمسي، وليس له همٌّ غيره»[14].

ومتى تقرَّر هذا بدأت مرحلة تصفية القلب، وخلوصه ممَّا علق به، حتَّى يكونَ مقامًا طاهرًا حاضرًا لاستقبال فيض زاخر من أعذب الكلام، وأحسن البيان؛ لأنَّ محبَّته لا تستقرُّ إلاَّ في غوْرٍ خالصٍ نقيٍّ.

نـزِّهْ فؤادك من سوانا تلْقنا
فجنابنا حلٌّ لكلِّ مُنزَّهِ
والصَّبر طِلَّسْمٌ لكنز وصَالِنَا
منْ حلَّ ذا الطِّلسم فاز بكنزه

ومن أبين سُبل الهداية إلى تدبُّر كلام الرَّحمن؛ سبيل اقتفى أثره رجال صادقون، هم من آيات ربِّهم مشفقون، فشاد ما أسَّسوه، وثمَّر ما غرسوه، ولزم مضمارهم من أتى بعدهم، ليجد ما وجدوه، طريق شعاره: «اقرأ القرآن كأنَّك المخاطَب به» عن أحمد بن ثعلبة قال: سمعت سلم بن ميمون الخواص يقول: «قلت لنفسي: يا نَفْسُ اقرئي القرآن كأنَّكِ سمعتيه من الله حين تكلَّم به؛ فجاءت الحلاوة»[15].

ومن لطيف ما يُذكر في بيان هذا السَّبيل ما أورده الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله: «إذا أردتَّ الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به، من تكلَّم به سبحانه منه إليه، فإنَّه خطاب منه لك على لسان رسوله»[16].

هذه أقوم السُّبل إلى تدبُّر آيات التَّنزيل، وإنَّما اقتصر الكلام عليها لأهمِّيَّتها في فتح أقفال القلب، حتَّى ينقذف إليه نور كلام الرَّبِّ.

(11) «حلية الأولياء» (112/2).
(12) «الفوائد» لابن القيِّم (ص143).
(13) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (262/4).
(14) «الفوائد» (ص170).
(15) «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (180/8).
(16) «الفوائد» (ص13).

على أنَّ هذه الجزئيَّة من الموضوع، قد أفاض العلماء في تفصيلها بتوضيح سبلٍ أخرى، تقيم المائل، وتؤمِّن السَّائل، منها: أن تختار في أوَّل طريقك إلى تدبُّر القرآن، الآيات الَّتي أثنى الله فيها على ذاته العليَّة، فتلزم قراءتها، وتعيد تلاوتها؛ خاصَّةً في جوف اللَّيل الآخر.

ومنها كذلك، أن تُفرز من كتب التَّفسير وهي كثيرة، تفسيرًا جامعًا في بابه، شافيًا في توضيح تأويل أي القرآن، كـ: «أضواء البيان» للأمين الشَّنقيطي، أو «تيسير الكريم الرَّحمن» للسَّعدي، وممَّا يعين مُريد التَّدبُّر، معرفة أساليب كلام العرب ومناحيهم، وأضرب البلاغة في بيانهم، كون القرآن نزل بلسانهم.

ولْيعلم من صدقت سريرته في إخراج هذا الدُّرِّ من اللُّجِّي، أنَّ المُضيَّ في رحاب هذه السُّبل يحتاج إلى نفَس طويل، ودأب حثيث، وبذل جُهد مُكد:

إن كنت تبغي بهم لحوقا
فابذل لمولاك منك جهدًا
ولا تكن طامعًا بفوز
ولم يرَ الله منك كدًّا



فما هي ثمرات التَّدبُّر الحكيم؟

تدبُّر القرآن بضاعة العاقل الَّتي لا تخسر، وربحها يظهر في أرض المحشر، من تدبَّر القرآن أورثه العلم بالله، والعلم به يورثه الرَّهبة منه، وخشيته تعني مراقبته سرًّا وعلنًا، وكذلك تأتي المحبَّة من بعد، قال إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل يقول: «رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله»[17].

من تدبَّر القرآن رُفع ذكره وقدره، فعن المُزني قال: سمعت الشَّافعي يقول: «مَنْ تعلَّم القرآن عظمت قيمته»[18].

من تدبَّر القرآن طال قلقه وامتدَّ رجاؤه، واشتدَّ شوقه، وعظُم خوفه، ولان قلبه، وذرفت عيناه، وهانت الدُّنيا عنده، روى حوشب عن الحسن قال: «يا ابن آدم! والله إن قرأت القرآن ثمَّ آمنت به، ليطولنَّ في الدُّنيا حُزنك، وليشتدنَّ في الدُّنيا خوفك، وليكثُرنَّ في الدُّنيا بكاؤك»[19].

من تدبَّر القرآن قدَّم بين يديه ذُخرًا يغنيه يوم فقره، هو من أجلِّ الأعمال.

مَنْ تدبَّر القرآن، استشعر وفادته على ربِّه وهو قائم في مصلَّاه، ليُحسن الله وفادته عليه يوم يلقاه.

من تدبَّر القرآن، أتبع السِّيئاتِ بالحسنات، وأصلح الهفوات قبل الفوات.

مَنْ تدبَّر القرآن، علم أنَّ الفائز من ارعوى، وأنْ ليس للإنسان إلَّا ما سعى، وأنَّ سعيه سوف يُرى، ثمَّ يُجزاه الجزاء الأوفى.

مَنْ تَدَبَّرَ القرآن، بكى ذنوبه بدمع يضارع المُزنَ حال مُصابه.

مَنْ تَدَبَّرَ القرآن، أظهر الإحسان قبل إغلاق بابه.

مَنْ تَدَبَّرَ القرآن اقتنع بالكفاف، وامتنع عن الحرام، واستمع للعظات، وارتدع بالوعيد قال الحسن بن عبد العزيز: «من لم يردعه القرآن والموت ثمَّ تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع»[20].

المتدبِّر للقرآن أكمل النَّاس معرفةً بالله، قال ابن القيِّم: «وأعظم هؤلاء معرفةً من عرفه من كلامه؛ فإنَّه يعرف ربًّا قد اجتمعت له صفات الكمال، ونعوت الجلال، مُنزَّه عن المثال، بريءٌ من النَّقائص والعيوب، له كلُّ اسمٍ حسنٍ، وكلُّ وصف كمال»[21].

وإليك ترياق من فذٍّ ملأ الآفاق: «اخْرُجْ بالعزم من هذا الفناء الضَّيِّق المحشوِّ بالآفات، إلى ذلك الفناء الرَّحب الَّذي فيه ما لا عينٌ رأت، فهناك لا يُتعذَّر مطلوب، ولا يُفقد محبوب»[22].

ها نحن نُدعَى إلى إجابة الدَّاعي: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، وليس لنا بعد هذا إلَّا أن نهيِّئ قلوبنا لتكون مساكن طيِّبةً، تنظر في الآيات، وتتدبَّرها في الآصال والغدوات.

فهلُمَّ إلى حدائقَ ذات بهجة، وبساتين ذات نضرة، إذا أبصرها لم يرضَ إلَّا المُقام في أعالي الجنان، والازدلاف من الرَّحمن.

أتاك حديث لا يُمَلُّ
شهيٌّ إلينا نثره ونظامه
إذا ذكرته النّفس زال عناؤُها
وزال عن القلب المعنّى ظلامه

❀❀❀

(17) «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (426/8 ـ 427).
(18) «سير أعلام النُّبلاء» (24/10).
(19) «سير أعلام النُّبلاء» (575/4).
(20) «سير أعلام النُّبلاء» (334/12).
(21) «الفوائد» لابن القيِّم (ص255).
(22) «الفوائد» (ص63).



فتاوى شرعية

■ أ.د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية - الجزائر

البقاء في أرض الحجاز أكثر من المدة المعينة

❁ **السُّؤال:**

بعض النَّاس يبقى لأداء مناسك الحجِّ بعد شهر رمضان من غير ترخيصٍ من الجهات المعنيَّة في أرض الحجاز، فما حكم هذا الفعل؟

❁ **الجواب:**

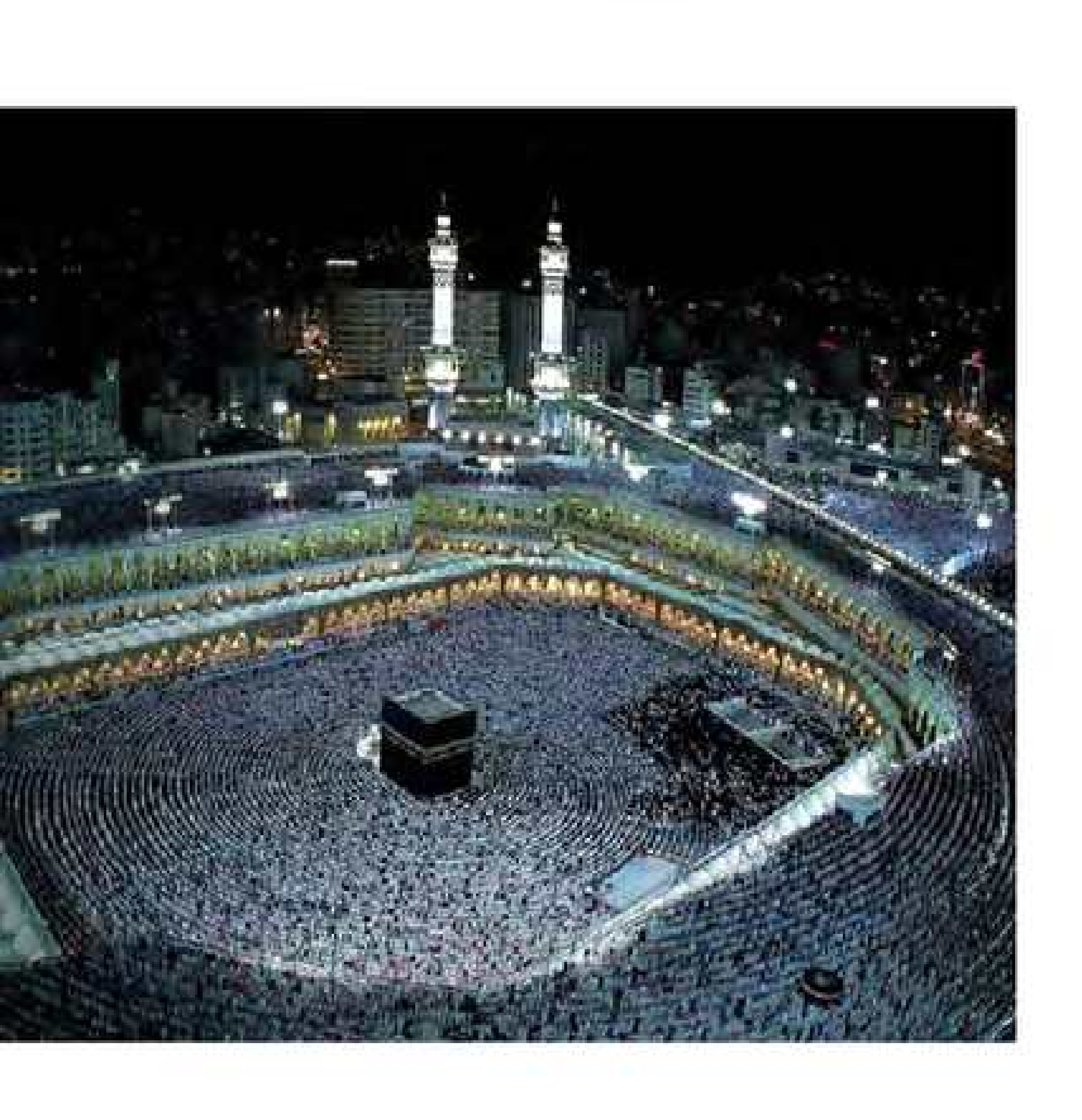
لا يخفى ما يترتَّب على بقاء كلِّ معتمرٍ قادم من كلِّ بلد في أرض الحجاز من إخلالٍ بالتَّنظيم العامِّ وما يجرُّه من مفاسد كظاهرة التَّسوُّل والسَّرقة وغيرهما، لذلك كانت تأشيرةُ الحجِّ أو العمرة مقرونةً بمدَّة محدَّدة لا يتجاوزها إلاَّ بترخيص آخر تنظيمًا لفئة المعتمرين وتحسينًا لوضعيَّتهم، ضمنَ الوضع العامِّ الأمر الَّذي يجعل هذا التَّصرُّف ملزِمًا للمعتمرين ويجب عليهم تنفيذه والوفاء به لعلَّتين:

□ **الأولى:** إنَّ تصرُّف الإمام الحاكم أو نوابه بتوقيت المدَّة وتحديد العدد مبنيٌّ على مصلحة الجماعة وخيرها، فكانت تصرُّفاته واجبة التَّنفيذ وملزمة على من تحت رعايته بناءً على قاعدة: «التَّصرُّف على الرَّعيَّة منوطٌ بالمصلحة»[(1)] وأصل هذه القاعدة قول الشَّافعي رحمه الله: «منزلة الإمام في الرَّعيَّة منزلةُ الوليِّ من اليتيم»[(2)] وهذا الأصل مأخوذٌ من قول عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنِّي أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددتُّه، وإن استغنيت استعففت»[(3)]، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «**الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه**»[(4)].

□ **الثَّانية:** إنَّ إعطاءَ تأشيرةٍ للمعنيِّ بالأمر مشروطةٌ بعهد، وهو بقاؤه تلك المدَّة المحدَّدة، والعهد يجب الوفاء به لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ﴾ [البقرة: 177].

وبناء عليه؛ فإنَّه ينبغي على المعنيِّ بالأمر أن يسعى لتحصيل تأشيرة الحجِّ ابتداءً قبل طلبه لتأشيرة العمرة حتَّى يسعه تأدية المناسك الواجبة عليه على الوجه المطلوب، فإن تعسَّر أخذ تأشيرةٍ إلاَّ لعمرة راعى شرطها، غير أنَّه إن بقي إلى وقت الحجِّ وخالف من غير ترخيص، فحجُّه صحيحٌ ولا تقدح في صحَّته هذه المخالفة وبخاصَّةٍ إن كان ذلك - في حقِّه - حجَّة الإسلام، والله أعلم.

□□□



(1) انظر هذه القاعدة في «المنثور» للزَّركشي (183/1)، «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي (134)، «مجامع الحقائق» للخادمي (316)، «الوجيز» للبورنو (292).

(2) انظر «المنثور» للزَّركشي (183/1).

(3) أخرجه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (11164)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وصحَّحه ابن كثير في «إرشاد الفقيه» (51/2)، وفي «تفسير القرآن العظيم» (190/2).

(4) أخرجه البخاري (893)، ومسلم (1829)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.



في حكم انصراف الأصيل من منى إذا وكَّل غيره في الرَّمي

❁ **السُّؤال:**

هل يُشترطُ بقاءُ الأصيلِ إذا استُنيبَ عنه في الرَّمْي، أم يجوز لهِ الانصرافُ من مِنًى؟ وجزاكم الله خيرًا.

❁ **الجواب:**

يجوز لكلِّ من عَجَزَ عن الرَّمي بنفسه: ككبيرِ السِّنِّ والمريض والمرأةِ الحاملِ الَّتي تخشى من شِدَّة الزَّحمة أن يستنيبَ غيرَه ويوكله في الرَّمي عنه، فالنِّيابةُ في الرَّمي جائزة، ويرمي الوكيل عن موكله بعد أن يرمي عن نفسه، وعلى المستنيب أو الموكِّل البقاءُ في منًى وجوبًا حتَّى يرمي النَّائبُ أو الوكيلُ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم ينفر من منًى إلاَّ بعد الرَّمي، وقد جاء عنه ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»[5]، غير أنَّه قد يُرخَّصُ لأهل الضَّرورة والأعذار النَّفْرُ لحالاتٍ مُستعجلة، كالحامل الَّتي أوشكت أن تضع مولودَها، والمريضِ الَّذي استفحلَ مرضُهُ ولم يوجد في منًى من يسعفُهُ وما إلى ذلك.

هذا، وحَرِيٌّ بالتَّنبيه أنَّه لا تصحُّ النِّيابةُ في الرَّمي على القادرين من الرِّجال والنِّساء والصِّبيان، وهم المعنيُّون أصالةً بالرَّمي عن أنفسهم سواءً في فرض الحجِّ أو نفله لوجوب إتمام الحجِّ والعُمرة لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196]، أمَّا حديث جابر بن عبد الله ﵄ قال: «حَجَجْنَا مع رسول الله ﷺ ومعنا النِّساءُ والصِّبيانُ، فلبَّينا عن الصِّبيان ورمينا عنهم»[6]، فلا يصحُّ الاحتجاجُ به لضَعْفه.

والعلمُ عند الله تعالى.

□□□

(5) أخرجه مسلم (1297)، وأبو داود (1970)، والنَّسائي (3062)، وأحمد (14419)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (9608) واللَّفظ له، من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

(6) أخرجه ابن ماجه (3038)، وأحمد في «مسنده» (14370)، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (13841)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (9495)، من حديث جابر ﵁، وأخرجه التِّرمذي (927) بلفظ: «كنَّا إذا حججنا مع النَّبيِّ ﷺ فكنَّا نلبِّي عن النِّساء ونرمي عن الصِّبيان»، قال ابن حجر في «التَّلخيص الحبير» (548/2): «وفي إسنادهما [أي: ابن ماجه، وابن أبي شيبة] أشعث بن سوار وهو ضعيف»، وضعَّفه الألباني في «حجَّة النَّبيِّ» (49)، وشعيب الأرناؤوط في «تحقيقه لمسند أحمد» (314/3).

في حكم خروج الحاجِّ إلى جدَّة من غير طواف الوداع مع نية العودة إلى مكَّة

❁ **السُّؤال:**

هل يجب على الحاجِّ طوافُ الوداع بمجرَّد خروجه من مكَّة إلى جُدَّة مثلاً ـ ولو بنيَّة العودة من يومه ـ أم يُؤخِّره إلى حين مغادرته النِّهائيَّة؟ وجزاكم الله خيرًا.

❁ **الجواب:**

طوافُ الوداع في مناسك الحجِّ واجبٌ على أرجح قَوْلَي العُلماء خلافًا لمالك وداودَ وأحدِ قَوْلَي الشَّافعيِّ؛ لأمره ﷺ به كما في الحديث: «أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِمْ بِالْبَيْتِ»[7]، ولنهيه ﷺ عن النَّفْر من غير طواف في قوله ﷺ: «**لاَ يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بِالبَيْتِ**»[8]، ولقوله ﷺ في صفيةَ ﵂: «**أَحَابِسَتُنَا هِيَ؟**»[9]، والتَّطوُّعُ لا يحبس أحدًا، ولأنَّه ﷺ رَخَّصَ للحائض أن تنفر من غير طواف الوداع، فدلَّ إسقاطُه عنها على وجوبه على غيرها؛ لأنَّ الرُّخصة لا تكون إلاَّ من واجبٍ، ويستثنى ـ أيضًا ـ من لا يلزمه طواف الوداع المكِّي والآفاقي إذا استوطن مكَّةَ قولاً واحدًا مُجمَعًا عليه، وكذلك إذا أخَّر الحاجُّ طواف الإفاضة

(7) أخرجه البخاري (1755)، ومسلم (1328)، من حديث ابن عبَّاس ﵄.

(8) أخرجه مسلم (1327)، من حديث ابن عبَّاس ﵄.

(9) أخرجه البخاري (1757)، ومسلم (1211)، من حديث عائشة ﵂.

فطافه عند الخروج أجزأ عن طواف الوداع.

هذا، والأَوْلَى للحاجِّ إن أراد الخروجَ من مكَّةَ إلى جُدَّةَ أو إلى أيِّ بلدٍ آخرَ أن يودِّع البيتَ ثمَّ يسافرُ، فإن أراد الرُّجوع إلى مكَّةَ جاز له أن يدخلَها بغير إحرام إن لم يُرِدْ نُسُكًا، وهو الصَّحيحُ من أقوال العلماء في مسألة حكم الإحرام لدخول مكَّة، وإنَّما أمر النَّبيُّ ﷺ بالإهلال لمن أراد الحجَّ والعمرةَ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: «**هُنَّ لَهُنَّ وَلِكُلِّ آتٍ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِهِنَّ مِمَّنْ أَرَادَ الحَجَّ وَالعُمْرَةَ**»[10]، ومفهوم الحديث أن لا إحرامَ يلزم عليه وإن دخل مكَّةَ من غير إرادة النُّسك، وقد بوَّب له البخاري: «باب دخول الحرم ومكَّة من غير إحرام»، ويؤيِّد ذلك ما رواه مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ: «دَخَلَ مَكَّةَ عَامَ الفَتْحِ، وَعَلَى رَأْسِهِ مِغْفَرٌ»[11]، وفي رواية: «وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ بِغَيْرِ إِحْرَامٍ»[12]، قال النَّووي: «هذا دليلٌ لمن يقول بجواز دخول مكَّةَ بغير إحرام لمن لم يُرِدْ نُسُكًا سواء كان دخوله لحاجة تتكرَّر كالحطَّاب والحشَّاش والسَّقَّاء والصَّيَّاد وغيرهم، أم لم تتكرَّر كالتَّاجر والزَّائر وغيرهما، سواءٌ كان آمنًا أو خائفًا وهذا أصحُّ القولين للشَّافعي وبه يفتي أصحابُه»[13].

أمَّا إن خرج من مكَّةَ من غير طواف الوداع بنيَّة العودة فهو مخالفٌ لقوله ﷺ: «لاَ يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بِالبَيْتِ»، فإن لم يَعُدْ فيلزمه دمٌ في ترك واجبِ طواف الوداع[14]، فإن عاد وأدَّاه سقط عنه الدَّمُ وبرئت ذِمَّتُهُ ولا شيءَ عليه على أرجح أقوال أهل العلم؛ لأنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «ردَّ رجلاً من مرِّ الظَّهران لم يكن ودَّع البيت حتَّى ودَّع»[15]، واكتفى بأمره له بالعودة للطَّواف ولم يوجب عليه دمًا، والأصلُ عدمُ الدَّم حتَّى يَرِدَ الشَّرعُ به، وإنَّما يجب الدَّمُ على من ترك النُّسُكَ ولم يأت به كما في قول ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: «مَنْ نَسِيَ مِنْ نُسُكِهِ شَيْئًا، أَوْ تَرَكَهُ فَلْيُهْرِقْ دَمًا»[16]، وهو قد أتى به فشأنه كمن جاوز الميقات. وهو يريد النُّسك. من غير إحرام ثمَّ عاد وأحرم منه سقط عنه الدَّم، سواءٌ كان رجوعُه من بعيدٍ أو من قريبٍ، ومثله. أيضًا. كمن رجع إلى بلده قبل طواف الإفاضة لزمه أن يعود للطَّواف ولا شيءَ عليه.

والله أعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.

(10) أخرجه البخاري (1524)، ومسلم (1181).
(11) أخرجه مسلم (1357)، من حديث أنس رضي الله عنه.
(12) أخرجه مسلم (1358)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(13) «شرح مسلم» (131/9).

(14) ومذهب مالك وداود والشَّافعي في أحد قوليه أنَّ طواف الوداع سنَّة لا يجب بتركه شيء. [«التَّفريع» لابن الجلاَّب: (356/1)، «فتح الباري» لابن حجر: (585/3)].
(15) أخرجه مالك في «الموطأ» (824)، من حديث يحيى بن سعيد رحمه الله.

(16) أخرجه مالك في «الموطأ» (940)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (8931) موقوفًا، ورُوِيَ مرفوعًا ولا يصحُّ، انظر: «البدر المنير» لابن الملقِّن (91/6)، «التَّلخيص الحبير» لابن حجر (467/2)، «إرواء الغليل» للألباني (299/4).



كيفية الاشتراك..



يرجى إرسال طلب يتضمن الأمور التالية:

- الاسم واللقب.
- العنوان.
- الهاتف.
- الوظيفة.
- وصل الحوالة البريدية.

ترسل الحوالة البريدية باسم توفيق عمروني على الحساب البريدي الجاري:

ccp 4142776 clé 96

●●●

العنوان: دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو. المحمدية. الجزائر

الأفراد: 900 دج - المؤسسات 1000 دج



الإصلاح في أربعة مجلدات من العدد (1) إلى العدد (23)

يطلب من دار الفضيلة للنشر والتوزيع بسعر (2200 دج) شامل لمصاريف الشحن

من مزالق المحققين

تحقيق عنوان الكتاب - نموذجا -

■ شمس الدين حماش
ماستر في علوم الشريعة

إنَّ فنَّ تحقيق النُّصوص يُسْهِمُ في إخراج الكتاب المحقَّق وفق ما أراده صاحبه؛ من حيث الشَّكل والمضمون، لذا كان من أهمِّ مقوِّمات تحقيق النُّصوص ونشرها أن يبذل الباحث جهدَه، ويستفرغ وسعه، ويركِّزَ عنايته على أربعة جوانب قد تكون محلَّ إجماع بين أرباب التَّحقيق في وجوب مراعاتها واستيفائها، وهي:

- ◻ تحقيق عنوان الكتاب.
- ◻ تحقيق اسم المؤلِّف.
- ◻ تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلِّفه.
- ◻ تحقيق متن الكتاب حتَّى يظهر بقدر الإمكان مقاربًا لنصِّ مؤلِّفه[1].

ونظرًا لجليل قدر وعظيم خطر تصحيح عنوان الكتاب استحق لأن يكون أوَّل أصول التَّحقيق، وبوَّأه أن يُستفتَح به، ولمَّا كان العنوان أوَّل ما يواقع أجفان النَّاظر، ويدلُّ على مكنون الكتاب؛ حيث كان شاملاً لجميع محاوره غالبًا؛ تَعَيَّنَ على مُعَاني التَّحقيق أن يوليَ بالغ العناية لإثبات العنوان الصَّحيح للكتاب، متَّبعًا في ذلك مسالك نظريَّةً، وأخرى عمليَّةً تهديه إلى مقصوده.

ومع ما عُلِمَ من أهمِّية تحقيق عنوان الكتاب فإنَّ جُلَّ من ألَّف في فنِّ التَّحقيق،

(1) «تحقيق النُّصوص ونشرها»، عبد السَّلام هارون (ص42).

أو مارسه؛ جَنَحَ إلى بسط قوله، وتسليط عنايته على المحور الرَّابع وهو متن الكتاب، ما أدَّى إلى إغفال المحور الأوَّل المتمثِّل في تحقيق العنوان إغفالاً كليًّا أو جزئيًّا، يظهر أثر هذا القصور في الأخطاء الواقعة في إثبات عناوين كثير من الكتب، بل واشتهارها بين النَّاس بما مبناه ذاك الخطأ.

وقد تناولت في هذا الموضوع مسألة تحقيق عنوان الكتاب وفق شيء من التَّأصيل النَّظري، الَّذي يعتبر أساسَ الدِّراسة، بالإضافة إلى ذكر نماذج عن الأخطاء الواقعة في إثبات العنوان الصَّحيح للكتاب.

وتظهر أهمِّيَّة البحث في النِّقاط التَّالية:

□ حاجة مسألة تصحيح العنوان وتحقيقه إلى مزيد من العناية، في ظلِّ تسليط الجهود على المتون والنُّصوص.

□ بيان أهمِّ المسالك العلميَّة والتَّطبيقيَّة المعتمدة في تحقيق عنوان الكتاب.

□ بيان نماذج من الأخطاء الَّتي اقترفها المحقِّقون في إثبات العنوان، وأثرها على السَّاحة العلميَّة والمعرفيَّة.

المطلب الأوَّل
حقيقة عنوان الكتاب

قال ابن فارس: «عنَّ: العين والنُّون أصلان؛ أحدهما يدلُّ على ظهور الشَّيء وإعراضه، والآخر يدلُّ على الحبس.

فالأوَّل قول العرب: عَنَّ لنا كذا يَعِنُّ عُنونًا، إذا ظهر أمامك...

ومن الباب: عنوان الكتاب؛ لأنَّه أبرز ما فيه وأظهره، يقال عَنَنْتُ الكتاب أَعُنُّهُ عَنًّا، وعَنْوَنْتُه، وعَنَنْتُهُ أُعَنِّنُه تَعْنينًا، وإذا أَمَرْتُ قلتُ عَنِّنْهُ»[2].

ومجمل كلام اللُّغويِّين حول معنى العنوان يشمل معنى الظُّهور، والبروز، فهو كالدَّليل والسِّمَة للكتاب، مُفصحٌ لمضمونه، مسفرٌ عن مكنونه، فمن خلال المعنى اللُّغوي يمكن تركيب تعريف اصطلاحي لعنوان الكتاب وهو العبارة المُصدَّرة على طُرَّة الكتاب؛ تُمَيِّزه عن غيره، وتَدُلُّ على مضمونه.

وعليه يكون العنوان الصَّحيح للكتاب هو: العنوان الَّذي وضعه المؤلِّف، دون تصرُّف لحقه[3].

يُعرَفُ من هذا أن ليس للنَّاسخ أو المحقِّق تغيير العنوان أو جزء منه لعلَّة يراها؛ بل يجب عليه الحفاظ على عنوان المؤلِّف مهما ظهر فيه من مخالفات تعنُّ للمحقِّق (كالطُّول، السَّجع، الإغلاق...)، يُسْتَثْنَى من ذلك حالةٌ واحدةٌ، هي انعدام العنوان، يأتي التَّفصيل فيها لاحقًا.

المطلب الثَّاني
مسالك تحقيق عنوان الكتاب

المسلك الأوَّل: أن يثبت العنوان على واجهة كتاب بخطِّ مؤلِّفه، فهو أقوى مسالك إثبات العنوان؛ لأنَّه وُجِدَ بخطِّ المؤلِّف الَّذي هو أدرى بكتابه.

المسلك الثَّاني: أن يذكر العنوان أثناء الكتاب؛ ويحتمل موضعين:

الموضع الأوَّل: أن يذكر العنوان في ديباجة الكتاب؛ إذ درب المصنفون استهلال كتبهم بذكر سبعة أمور هي من محاسن الاستهلال، منها: ذكر عنوان الكتاب، وهذا النَّوع مألوف الوقوع.

الموضع الثَّاني: أن يذكر العنوان في أثناء المتن؛ إذ يحصل من بعض أرباب التَّصنيف ذكر عنوان الكتاب أثناء المتن، مع إسقاطه في الطُّرَّة والخطبة، ولعلَّ السَّبب في ذلك أنَّ المؤلِّف لم يَسْتَجْمِعْ عزمَه على اسم مُعَيَّنٍ ابتداءً، فوقع منه أثناء التَّبييض.

مثاله صنيع الإمام محمَّد بن رشد المالكي، الشَّهير بابن رشد الحفيد، والمتوفَّى سنة (595هـ)، إذ صرَّح باسم كتابه المعروف باسم «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في كتاب الكتابة حيث قال: «بيد أنَّ في قوَّة هذا الكتاب أن يبلغ به الإنسان كما قلنا رتبةَ الاجتهاد؛ إذا تقدَّم فعَلِمَ من اللُّغة العربيَّة وعَلِمَ من أصول الفقه ما يكفيه في ذلك، ولذلك رأينا أن أخصَّ الأسماء بهذا الكتاب أن نسمِّيَهُ: كتاب بداية المجتهد وكفاية المقتصد»[4].

المسلك الثَّالث: أن يرد اسم الكتاب في نسخة معتمدة، كأن تحمل إجازة المؤلِّف، أو قُرِئَتْ عليه، أو قوبلت على نسخته، أو تكون عليها سماعات، أو تملُّكات.

المسلك الرَّابع: أن يُسَمِّي المؤلِّف كتابه في كتاب آخر له -وهو كثيرٌ في نوعه-، لكن على المحقِّق أن يستحضر أنَّه قد يقع من المؤلِّف ذكر كتابه على سبيل الإحالة لا الإثبات؛ فيكتفي حينئذ بذكر طرف من العنوان، أو يذكر معناه، أو ما اشتهر به بين النَّاس، فيلتبس حينئذ على المحقِّق.

من أمثلة هذا النَّوع؛ صنيع الشَّيخ

(2) «مقاييس اللُّغة»، ابن فارس (4/ 19 - 20).

(3) انظر «العنوان الصَّحيح للكتاب» (ص15)، وقد استفدتُ من الرِّسالة في أجزاء من البحث.

(4) «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، (2/388).

محمَّد المكِّي بن عزُّوز؛ حيث ذكر اسم كتابه في اختلاف الأئمَّة، في كتاب آخر هو «هيئة النَّاسك في أنَّ القبض في الصَّلاة هو مذهب الإمام مالك»، قال: «ومعذرة من خالف الحديث الصَّحيح من الأيمَّة، معدوداتٌ مفصَّلاتٌ في مواضعها، ويوجد تفصيلها بأمثلتها في رسالتنا المسمَّاة «الفائدة المهمَّة في سبب اختلاف الأيمَّة» جوابًا لسائل فاضل سألني عن ذلك».

المسلك الخامس: أن يذكر العنوان في آخر الكتاب، شرطَ أن لا يكون بخطِّ المؤلِّف، حتَّى لا يُعَدَّ من متنه فيدخل فيما ذكر آنفًا.

المسلك السَّادس: النَّظر في كتب الفهارس، والمشيخات، والأثبات، والبرامج؛ «كالفهرست» لابن النَّديم، و«فهرسة ابن خير الإشبيلي»، و«فهرس الفهارس» للكتَّاني، أو «برنامج الوادي آشي»، وغيرها من كتب الأثبات، أو «المجمع المؤسَّس للمعجم المفهرس» للحافظ ابن حجر، وغيرها من كتب المشيخات؛ إذ تعتني بذكر أسانيد الكتب المصنَّفة ومصنِّفيها.

المسلك السَّابع: تقصِّي تراجم المؤلِّف وتتبُّع ما كتب عن حياته، حيث عني المترجمون غالبًا بذكر بعض كتب المترجم له، مثل كتاب «الأعلام» لخير الدِّين الزِّركلي، أو الكتب الَّتي عُنيَت بذكر عناوين الكتب؛ مثل «كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، وذيله الموسوم بـ «إيضاح المكنون في الذَّيل على كشف الظُّنون» لإسماعيل البغدادي، وكتاب «معجم المؤلِّفين» لرضا كحَّالة، وكتاب «الدُّرُّ الثمين في أسماء المصنِّفين» لابن أنجب السَّاعي.

□ حالة انعدام العنوان:

يقع لأسباب عديدة: كوفاة المؤلِّف قبل إتمام الكتاب، أو كونه عبارةً عن إملاءات أو سماعات جُمعت.

في هذه الحالة يتَّبع المحقِّق المراحل التَّالية لإثبات العنوان:

أوَّلاً: إذا كان للكتاب أكثر من نسخة مخطوطة، يثبت العنوان الواقع في أكثر النُّسخ.

ثانيًا: يقدِّم العنوان المرسوم على نسخة أحد تلامذة المصنِّف، وما عليه سماعات.

ثالثًا: يقدِّم العنوان الأكثر شهرةً وتداولاً بين أهل الفنِّ، وأصدقهم على مضمون الكتاب.

ولعلَّ كتاب أبي سالم العيَّاشي المالكي يصلح مثالاً لهذا النَّوع؛ حيث لا يُعْلَمُ من العيَّاشي تسميةُ كتابه الَّذي يصف فيه ترحاله، فاشتهر الكتاب في أوساط الباحثين باسم «ماء الموائد» وكذلك أثبت في بعض النُّسخ الخطِّيَّة، ومنها ما هو بعنوان «الرِّحلة العيَّاشيَّة إلى الدِّيار النُّورانيَّة»، إلاَّ أنَّ جُلَّ النُّسخ تواطأت على تسميته بـ «الرِّحلة العيَّاشيَّة»، ولموافقة هذا العنوان مضمون الكتاب ورسمه، جنح محققَا الكتاب؛ وهما الدُّكتوران سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي إلى اعتماده عنوانًا للكتاب[5].

□ أما كون المؤلِّف وضع عنوانَين لكتابه؛ نميِّز بين حالتين:

الحالة الأولى: أن يضع عنوانَين ينتقل عن أحدهما إلى الآخر، فيعتَمِدُ المحقِّق العنوان الثَّاني الَّذي استقرَّ عليه اختيار المؤلِّف؛ مثاله صنيع الإمام الشَّاطبي المتوفَّى (790هـ)؛ إذ عدل عن تسمية كتابه في علم مقاصد الشَّريعة بـ «عنوان التَّعريف بأسرار التَّكليف» إلى تسميته بـ «كتاب الموافقات»، حيث قال: «ولأجل ما أودع فيه من الأسرار التَّكليفيَّة المتعلِّقة بهذه الشَّريعة الحنيفيَّة؛ سمَّيته بـ «عنوان التَّعريف بأسرار التَّكليف»، ثمَّ انتقلتُ عن هذه السِّيماء لسند غريب، يقضي العجبَ منه الفطنُ الأريبُ، وحاصله أنِّي لقيتُ يومًا بعض الشُّيوخ الَّذين أحللتهم منِّي مَحَلَّ الإفادة، وجعلت مجالسهم العلميَّة محطًّا للرَّحل ومناخًا للوفادة، وقد شرعت في ترتيب الكتاب وتصنيفه، ونابذت الشَّواغل دون تهذيبه وتأليفه؛ فقال لي: رأيتك البارحة في النَّوم، وفي يدك كتاب أَلَّفْتَهُ فسألتُكَ عنه فأخبرتني أنَّه: «كتاب الموافقات»[6].

الحالة الثَّانية: أن يضع المؤلِّف عنوانَين لكتابه أو أزيد، يخيِّر النَّاظرَ بينها، ففي هذه الحالة يصح للمحقِّق إثبات أحدهما، إلاَّ أنَّ الأولى مراعاةُ المستفيض عند العلماء من جملة العناوين، حتَّى لا يلتبس الكتاب على القارئ.

ويحسن بالمحقِّق أن يثبت العنوان الأكثر شهرةً على دفَّة الكتاب بالبند البارز، ويذيِّله بالعنوان الثَّانوي بحجمٍ أصغر منه.

مثاله صنيع الإمام القرافي المتوفَّى (684هـ)، إذ جعل لكتابه في الفروق والقواعد ثلاثةَ عناوين خَيَّر بينها، حيث قال: «وعوائد الفضلاء وضع كتب الفروق بين الفروع وهذا في الفروق بين القواعد وتلخيصها، فله من الشَّرف على

(5) «الرِّحلة العيَّاشيَّة»، لأبي سالم العيَّاشي (33/1).

(6) «كتاب الموافقات»، تحقيق مشهور حسن سلمان (11.10/1).

تلك الكتب شرف الأصول على الفروع، وسمَّيته لذلك «أنوار البروق في أنواء الفروق»، ولك أن تسمِّيَهُ «كتاب الأنوار والأنواء»، أو «كتاب الأنوار والقواعد السَّنيَّة في الأسرار الفقهيَّة»، كلٌّ ذلك لك»[7].

أعجب منه! صنيع ابن الشَّمَّاع المالكي المتوفى (833هـ)؛ في كتاب رَدَّ به على البُرزلي في مسألة «العقوبة الماليَّة»، فوَضَع له عشرة عناوين كلَّها من سَجَعات القرون المتأخِّرة، حيث قال في طالع كتابه: «وسميته بـ:

. مطالعُ التَّمام، ونَصائحُ الأنام، ومَنجاةُ الخواصِّ والعَوامِّ، في ردِّ القول بإباحة إغْرام ذَوي الجنايات والإجْرام، زيادةً على ما شَرَع الله من الحُدود والأحْكام.

. وإنْ شئتَ فسمِّه بـ: النَّصائحُ الجليَّة، في فَضائح القول بتَحْليل الخطيَّة.

. وإنْ شئت فـ: نُصْحُ البَريَّة، في تخطئة من حَلَّل الخطيَّة.

. وإن شئت فـ: ردُّ الرَّأي المُضلَّل، في الظُّلم المُحلَّل.

. وإنْ شئت فـ: الرِّماحُ الخطيَّة، في دَفع القول بتَحْليل الخطيَّة.

. وإن شئتَ: العضب الباترة، للآراء الخاسرة.

. وإن شئت فـ: طعانُ الأسنَّة، لمن خالف الكتاب والسُّنَّة.

. وإن شئت فـ: رَمْيُ السِّهام، لمن ضَلَّلَ الحُكَّام.

. وإن شئت فـ: العَذْبُ السَّلسال، في تحقيق الحقِّ في منع العقوبة بالمال.

. وإن شئت فـ: نُصْحُ الخُلَفَا، في التحصُّن بحصون الوَفَا، والإعْراض عن مَقالات أهل الغُلوِّ والجَفَا، اتِّباعًا لشريعة المصطفَى ﷺ»[8].

نظيره العباس بن إبراهيم السَّملالي المتوفى (1378هـ)؛ إذ جعل لكتابه المسمَّى بـ «الإعلام بمن حلَّ بمرَّاكش وأغمات من الأعلام» عشرةَ عناوين يخيِّرُ النَّاظر بينها.

المطلب الثَّالث
أسباب التَّحريف الواقع في جملة العناوين

تساعد معرفة أسباب التَّحريف الواقع في عنوان الكتاب في إحكام مسالك التَّحقيق؛ فإذا شخِّص الدَّاء؛ عرف الدَّواء.

الضِّدُّ يظهر حسنهُ الضِّدُّ
وبضدِّها تتبيَّن الأشياء

السَّبب الأوَّل: ضياع الورقة الأولى من المخطوط الَّتي عليها العنوان، وانعدام نسخ أُخَر يجبر منها السَّقط.

السَّبب الثَّاني: الانطماس الكلِّي أو الجزئي للعنوان جرَّاء العوامل الزَّمنيَّة؛ كالأَرَضَة والتَّآكل، أو بسبب تحلُّل الحبر، أمَّا الانطماس الجزئي فيساعد كثيرًا على التَّحقق من العنوان الكامل للكتاب خاصَّةً إذا لم ينطمس اسم المؤلِّف.

السَّبب الثَّالث: أن يكون العنوان مزيَّفًا إمَّا عمدًا لترويج الكتاب، أو خطأً للجهل بموضوع الكتاب؛ حيث يجد مالك الكتاب أو النَّاسخ أوراقَ العنوان ضائعةً فيضع عنوانًا للكتاب مُقاربًا، يعرف بلَحظ مغايرة بين ورقة العنوان والكتاب من حيث الخطِّ والحبر وصفة النُّسخ.

السَّبب الرَّابع: تصرُّف النَّاسخ أو المحقِّق في العنوان طلبًا للاختصار إذا كان العنوان طويلًا؛ مثاله كتاب في معرفة الضُّعفاء لمحمَّد بن عمرو العقيلي المتوفَّى (322هـ)، وكتابه هذا طبع باسم «الضُّعفاء الكبير» واسمه الصَّحيح هو: «كتاب الضُّعفاء، ومن نُسب إلى الكذب ووضع الحديث، ومن غلب على حديثه الوهم، ومن يُتَّهم في بعض حديثه، ومجهول روى ما لا يُتَابَعُ عليه، وصاحب بدعة يغلو فيها ويدعو إليها، وإن كانت حالُهُ في الحديث مستقيمةً، مؤَلَّف على حروف المعجم»، وقد نصَّ المحقِّق على هذا فقال: واسم الكتاب حسب تسمية المصنِّف... ثمَّ ذكره.. سوى أنَّه لم يثبته على غلاف الكتاب!

السَّبب الخامس: تصرُّف المحقِّق في العنوان بالتَّبديل؛ بداعي مواكبة عصر النَّهضة! حيث يعلم من فترة الانحطاط خاصَّةً اشتهارُ عناوين مسجوعةَ الحبك، متكَلَّفَةَ السَّبك، فلم يستعذبها بعض المعاصرين ممَّن عانَوْا أَمْرَ التَّحقيق، فجنحوا إلى تغيير تلك العناوين بما يوافق المنهجيَّة العلميَّة.

مثاله كتاب جلال الدِّين السُّيوطي المتوفَّى (911هـ)، والموسوم بـ «تناسق الدُّرر في تناسب السُّور»، حيث أن عبد القادر أحمد عطا وغيَّر عنوان الكتاب إلى «أسرار ترتيب القرآن»، وعَلَّل ذلك بقوله: «غيَّرنا عنوان الكتاب بما يتناسب مع العصر، وبُعدًا عن الأسجاع المألوفة في عصر المؤلِّف»[9]، وهذا صَنيعٌ منه غيرُ مرضيٍّ، ورُبَّ عذرٍ أقبح من ذنبٍ!

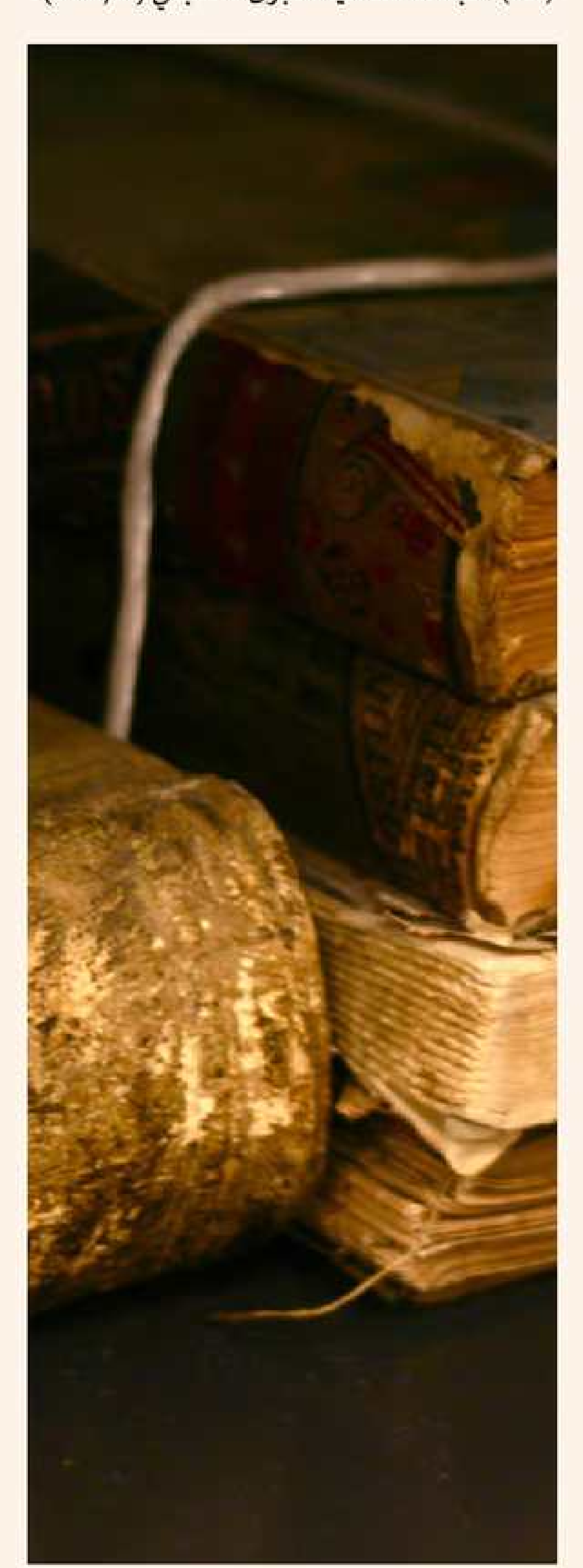
(7) «أنوار البروق في أنواء الفروق»، القرافي (72/1).

(8) «مطالع التَّمام» لابن الشَّمَّاع (ص76).

(9) «أسرار ترتيب القرآن»، تحقيق عبد القادر عطا (ص63).

السَّبب السَّادس: تعديل العنوان لاشتماله على مخالفة تظهر للنَّاسخ أو المحقِّق، مثاله كتاب أبي القاسم الرَّافعي المتوفَّى (623هـ)، المسمَّى بـ «العزيز في شرح الوجيز»؛ قال السُّبكي في ترجمة أبي القاسم الرَّافعي: «صاحب الشَّرح الكبير المسمَّى بالعزيز وقد تورَّع بعضُهم عن إطلاق لفظ العزيز مجرَّدًا على غير كتاب الله فقال الفتح العزيز في شرح الوجيز»[10].

(10) «طبقات الشَّافعيَّة الكبرى»، السُّبكي (8/281).



المطلب الرَّابع
نماذج للأخطاء الواقعة في عناوين الكتب

أذكر في هذا المطلب نماذج للأخطاء الواقعة في إثبات عناوين بعض الكتب، مع التَّنبيه إلى منشأ الغلط وأصله، وقد اقتصرتُ على المهمِّ من ذلك، وتحاشيتُ تكرار ما انكشف غلطه، وصُحِّحَ نمطُه.

الكتاب الأوَّل: «صحيح البخاري»، لمحمَّد بن إسماعيل الجعفي البخاري المتوفَّى (256هـ).

يُعَدُّ كتاب البخاري من أشهر الكتب المعروفة بعنوان زائف، وإذ صَوَّبَ أهل الفنِّ عنوانه ـ وعنوان مسلم ـ أكتفي بذكر العنوان الصَّحيح؛ فخلُصوا إلى ضبط عنوان كتاب البخاري بما نصُّه: «الجامع المسند الصَّحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه».

الكتاب الثَّاني: «صحيح مسلم»، لمسلم بن الحجَّاج القشيري، المتوفَّى (261هـ).

طبع كتاب مسلم طبعات عديدة ليس في أحد منها الاسم الصَّحيح للكتاب المطابق لمضمونه؛ إذ خصَّ مسلم عنوانه بذكر مذهبه في عدم التَّمييز بين العدالة والتَّوثيق ـ خلافًا لمن زعمه ـ، حيث خلص أهل الفنِّ إلى تسمية كتاب مسلم بـ «المسند الصَّحيح المختصر من السُّنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ»[11].

الكتاب الثَّالث: «سنن التِّرمذي»، لأبي عيسى التِّرمذي المتوفى (279هـ).

طُبِعَ الكتاب بتحقيق الشَّيخ أحمد شاكر المتوفَّى (1377هـ)، بعنوان «الجامع الصَّحيح، وهو سنن التِّرمذي».

وهذه التَّسمية خطأٌ، لا هي عنوان الكتاب الصَّحيح، ولا هي مطابقةٌ لمضمون الكتاب ومنهجه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «اختصار علوم الحديث» تحت عنوان: إطلاق اسم «الصَّحيح» على التِّرمذي والنَّسائي: «وكان الحاكم أبو عبد الله والخطيب البغدادي يسمِّيان كتاب التِّرمذي «الجامع الصَّحيح» وهذا تساهل منهما؛ فإنَّ فيه أحاديث كثيرةً منكرةً»[12].

ـ «السُّنن»: وهو اسم مشهورٌ للكتاب، ويكثر نسبته إلى مؤلِّفه فيقال «سنن التِّرمذي» تمييزًا له عن بقيَّة السُّنن.

ووجه هذه التَّسمية اشتماله على أحاديث الأحكام مرتَّبةً على أبواب الفقه، وما كان كذلك يسمَّى سننًا، ولكنَّ الكتاب فيه الأحكام وغيرها، ففي هذه التَّسمية تَجَوُّزٌ بتسمية الكلِّ ببعض أجزائه.

ـ «الجامع»: وهو أشهر وأكثر استعمالاً، واشتهر إطلاقه منسوبًا إلى مؤلِّفه فيقال: «جامع التِّرمذي» ووجه تسميته بذلك: أنَّ الجامع عند المحدثين ما كان مستوعبًا لنماذج فنون الحديث الثَّمانية، وهي: السِّير والآداب، التَّفسير، العقائد، الفتن، الأحكام، الأشراط، المناقب، فسُمِّيَ الكتاب جامعًا لاشتماله على تلك الأبواب.

وهذا الاسم «الجامع» أو «جامع التِّرمذي» يدلُّ على الكتاب بالمطابقة: لاشتماله على الفنون الثَّمانية، وخلوِّه عن شرط الصِّحَّة، والسِّيماء الأقرب إلى نهج المؤلِّف ومسلكه في ترتيب كتابه هي:

(11) انظر «تحقيق اسمي «الصَّحيحين» و«جامع التِّرمذي»».

(12) «اختصار علوم الحديث»، ابن كثير (ص31).

«الجامع المختصر من السُّنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصَّحيح والمعلول وما عليه العمل»[13].

الكتاب الرَّابع: «تاريخ المدينة المنوَّرة»، لابن شبَّة النُّميري البصري المتوفَّى سنة (262هـ).

قال الشَّيخ بكر أبو زيد رحمه الله في «جزء زيارة النِّساء للقبور» (ص9): «و«تاريخ الإمام ابن شبَّة» المطبوع هذا العام عام 1403هـ باسم «تاريخ المدينة المنوَّرة» تصرُّفٌ من النَّاشر، وإلاَّ فإنَّ هذا العنوان لم يكن عند من ذكره، ولم يسمِّه به مؤلِّفه كما حصل بالتَّتبُّع».

الكتاب الخامس: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لأبي الوليد محمَّد ابن رشد المالكي، الشَّهير بابن رشد الحفيد، والمتوفَّى سنة (595هـ).

اشتهر كتاب ابن رشد وبلغ الآفاق، وغدا منار هدي يتجلَّى به الأفاضل الحُذَّاق؛ بين شارح ومُخْتَصِر، وناظر ومُقْتَصِر، ومستفيد منه القواعد، ومبرز خلاله الفوائد، كلُّهم ينميه إلى المؤلِّف بعنوان: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، وكذلك طبع بدار المعرفة غير طبعة، إلاَّ أنَّ الاسمَ الصَّحيح للكتاب هو: «كتاب بداية المجتهد وكفاية المقتصد»، صرَّح به مؤلِّفه في كتاب «الكتابة» كما تقدم.

الكتاب السَّادس: «فتح العزيز في شرح الوجيز»، أبو القاسم عبد الكريم الرَّافعي المتوفَّى سنة (623هـ).

كذلك طُبِعَ، وعنوان الكتاب الَّذي وضعه مؤلِّفه هو: «العزيز في شرح الوجيز»؛ حيث قال في طالع كتابه: «ولقَّبته بالعزيز في شرح الوجيز، وهو عزيز على المتخلفين بمعنى، وعند المبرَّزين المنصفين بمعنى، وربَّما تلتبس على المبتدئين والمتبلِّدين أمور الكتاب فيطمعون في اشتمال هذا الشَّرح على ما يشفيهم»[14].

وتقدَّم النَّقل عن السبكي في ذلك قريبًا.

الكتاب السَّابع: «مقدِّمة ابن الصَّلاح»، للإمام الحافظ أبي عمرو عثمان بن عبد الرَّحمن الشَّهْرَزُوري، المتوفَّى سنة (643 هـ).

اشتهر كتاب ابن الصَّلاح وطارت به الرُّكبان، وصار عمدة المحدِّثين في سائر البلدان، وعَكَف النَّاسُ عليه، وساروا بسيره، فلا يُحْصَى كم ناظم له ومُخْتَصِر، ومستدرك عليه ومُقْتَصِر، ومعارِض له ومنتَصِر، وشارح موضِّح، ومقيِّد مصحِّح، ومنكِّت موشِّح. ولعلَّ قيمة الكتاب قد شغلت النَّاظرين فيه عن العنوان الصَّواب، فطبع غير مرَّة باسم: «مقدِّمة ابن الصَّلاح»، كما طبع باسم: «علوم الحديث»، وطبعته الدُّكتورة بنت الشَّاطئ مذيَّلاً بكتاب «محاسن الاصطلاح» لسراج الدِّين البلقيني بعنوان: «مقدِّمة ابن الصَّلاح ومحاسن الاصطلاح».

- إنَّ ابن الصَّلاح قد سمَّى كتابه ونصَّ عَلَى هذه التَّسمية في مقدِّمة كتابه فقال: «فحين كاد الباحث عن مشكله لا يلفي له كاشفًا، والسَّائل عن علمه لا يلقى به عارفًا، مَنَّ الله الكريم تبارك وتعالى عليَّ، وله الحمد أجمع بكتاب: «معرفة أنواع علم الحديث»، هذا الَّذي باح بأسراره الخفيَّة، وكشف عن مشكلاته الأبيَّة»[15].

- جاء في نسخة إستانبول المحفوظة في المكتبة السُّليمانيَّة برقم (351)، والَّتي كان الفراغ من قراءتها عَلَى المصنِّف سنة (641هـ)، أي: قبل عام واحد من وفاة المؤلِّف، والَّتي حملت خطَّه في عدَّة مواضع، جاء في صورة السَّماع: «سُمِعَ جميع هذا الكتاب وهو كتاب «معرفة أنواع علم الحديث» على مصنِّفه»، وكَتَبَ ابن الصَّلاح رحمه الله في آخر طبق السَّماع: «صحَّ ذَلِكَ نفعه الله وبلَّغه».

- وكذا جاء ذكره عند غير واحد من أهل العلم، منه ما سطَّره النَّووي في «التَّقريب» إذ قال: «وهذا كتابٌ اختصرته من كتاب الإرشاد الَّذي اختصرته من «علوم الحديث» للشَّيخ الإمام الحافظ المتقن أبي عمرو عثمان ابن عبد الرَّحمن»[16].

الكتَّاب الثَّامن: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» تأليف الإمام عزِّ الدِّين ابن عبد السَّلام السُّلمي المتوفَّى سنة (660هـ).

طُبِعَ الكتاب بالمطبعة الحسينيَّة بالقاهرة سنة (1353هـ)؛ بعنوان «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، وتتابعت الطَّبعات في تناقله، واشتهر بين المتأخِّرين كذلك، مع أنَّ الكتاب عُرِفَ في عصر المؤلِّف بـ «القواعد الكبرى» وهو ما أُثبت في بعض نسخه المخطوطة، وجاء في سائر النُّسخ «قواعد الأحكام في إصلاح الأنام» وهو الأقرب للصَّواب، لموافقته مضمونَ الكتاب؛ وقد اهتدى إليه الدُّكتوران: نزيه كمال حمَّاد، وعثمان ضميرية ضمن عملهما على تحقيق الكتاب.

(13) انظر «الإمام التِّرمذي والموازنة بين جامعه وبين الصَّحيحين» (44 ـ 45).

(14) «فتح العزيز» مع «المجموع» للنَّووي (75/1).

(15) «معرفة أنواع علوم الحديث»، ابن الصَّلاح (ص08).

(16) «تدريب الرَّاوي شرح تقريب النَّواوي»، السُّيوطي (61/1).

الكتاب التَّاسع: «الفـروق»، للقرافي المتوفَّى سنة (684هـ).

أمَّـا كتاب القرافي فلم يسلم عنوانه مـن التَّحريف؛ ذلـك أنَّه اشـتهر بعنوان «الفـروق» لمطابقتـه مضمون الكتـاب، واشـتهر أيضـا بـ «أنوار الـبروق في أنواع الفـروق»، وليس واحد من تلك الأسـماء هـو عنـوان للكتاب، فقـد ذكـر القرافي أسـماء كتابـه الثَّلاثـة في الدِّيباجـة؛ إذ قال: «وعوائد الفضلاء وضع كتب الفروق بين الفروع وهـذا في الفروق بين القواعد وتلخيصـها فلـه من الشَّـرف علـى تلك الكتب شرف الأصول على الفروع وسمَّيته لذلـك «أنـوار الـبروق في أنـواء الفروق» ولـك أن تسـمِّيه «كتاب الأنـوار والأنواء» أو «كتـاب الأنـوار والقواعـد السَّـنيَّة في الأسرار الفقهيَّة» كلٌّ ذلك لك»[17].

الكتاب العاشر: «القوانين الفقهيَّة»، تأليف محمَّد ابن جُزَيّ الكلبي الغرناطي، المتوفَّى سنة (741هـ).

الاسـم الصَّـحيح للكتاب هو «قوانين الأحـكام الشَّـرعيَّة ومسـائل الفـروع الفقهيَّـة» كما ورد في نسـخه المخطوطة، وجاء التَّصـريح بذلك من المؤلِّف نفسـه في ديباجة كتابـه إذ قال: «فهذا كتاب في قوانين الأحكام الشَّرعيَّة ومسائل الفروع الفقهيَّـة؛ علـى مذهب إمـام المدينة أبي عبد الله مالك ابن أنس الأصبحي ـ رضي الله عنه ـ؛ إذ هو الَّذي اختاره أهل بلادنا بالأندلس وسـائر المغـرب اقتـداءً بدار الهجرة»[18].

الكتاب الحادي عشر: «شـرح سـنن ابن ماجـه»، لمغلطاي بن قليـج البكجري المتوفَّى (762هـ).

كـذا طبع الكتاب بدار الباز، وقد قام المحقِّق بإثبات هذا الاسـم دون أيِّ تعليلٍ أو توجيه لعمله ذاك!

هذا الشَّـرح اسـمه «الإعلام بسـنَّته عليه السَّـلام» هكـذا نصَّ على تسـميته مؤلِّفه مغلطاي في آخر النُّسـخة الموجودة من هذا الكتاب بخطِّه.

وكذا ذكره المؤلِّف في كتاب «الواضـح المبين» قال في مقدِّمته: «وسمَّيته «الواضح المبين في ذكر من استشـهد من المحبِّين»، وقصـدتُ به إجمام خواطر النَّاظرين في تصـانيفي سِـيَما كتاب «الإعلام بسـنَّته عليه الصَّلاة والسَّلام»[19].

الكتاب الثَّاني عشر: «القواعـد النُّورانيَّـة»، لشـيخ الإسـلام أحمـد بـن تيميَّة، المتوفَّى (728هـ).

لا يوجد ما يدلُّ على صـحَّة ثبوت هذه السِّـيماء، ولم يوردهـا أحـدٌ ممَّن ترجم للمؤلِّف أو استقصى كتبه، بيد أنَّه عُثِرَ على بعض النُّسخ المستكملِة الأول وقد كتب على طُرَّتها بخطٍّ حديثٍ «القواعد النُّورانيَّة».

وأقـرب عنـوان لقصـد المؤلِّـف، وأرجاها صـحَّةً هـو: «القواعـد الكلِّيَّة»؛ كـذا أثبت علـى بعض النُّسـخ، وجاءت إشـارةٌ خفيَّةٌ من المؤلِّـف في قوله: «ولولا أنَّ الغرضَ ذكر قواعد كلِّيَّة تجمع أبوابًا، لذكرنا أنواعًا من هذا»[20].

الكتاب الثَّالث عشر: «الباعـث الحثيـث في اختصـار علـوم الحديـث» للحافـظ إسـماعيل بـن عمرو بـن كثير الدِّمشقي، المتوفَّى سنة (774هـ).

كتاب ابن كثير في اختصار كتاب ابن الصَّـلاح المذكـور آنفًا، وسـمَّى الحافظ كتابه «اختصـار علوم الحديث»، وأمَّا ما اشـتهر بـه ـ أعني الباعـث الحثيث ـ فهو تأليف الشَّـيخ أحمد شاكر، والَّذي وضعه تعليقًا على الأصل.

الكتاب الرَّابع عشر: «الموافقات»، لأبي إسـحاق إبراهيم اللَّخمي الشَّاطبي المتوفَّى سنة (790هـ).

طبع الكتاب أربعَ طبعاتٍ مشهورة:

- الطَّبعة الأولى بتعليق الخضر حسين ومحمَّد حسـين مخلـوف تحـت عنـوان «الموافقات في أصول الأحكام».
- الطَّبعة الثَّانية بتحقيق محيي الدِّين عبد الحميد بعنوان «الموافقات في أصـول الأحكام».
- الطَّبعـة الثَّالثـة بتعليق الشَّـيخ عبد الله درَّاز بعنـوان «الموافقـات في أصـول الشَّريعة».
- الطَّبعـة الرَّابعـة بتحقيـق مشـهور حسن سلمان بعنوان «الموافقات».

والاسم الصَّـحيح الَّذي وضعه المؤلِّف هو: «عنوان التَّعريف بأسرار التَّكليف»، ثمَّ

(17) «أنوار البروق في أنواء الفروق» (72/1).

(18) «القوانين الفقهيَّة»، ابن جزي الكلبي (ص07).

(19) «الواضـح المبين في ذكر من استشهد من المحبِّين» (6ب).

(20) انظـر «القواعـد النُّورانيَّـة الفقهيَّـة» باسـمها الصَّحيح (13. 16).

عدل عنه إلى عنوان: «كتاب الموافقات» كما تقدَّم النَّقل عنه.

الكتاب الخامس عشر: «البحر المحيط في أصول الفقه»، تأليف بدر الدِّين محمَّد بن عبد الله الزَّركشي الشَّافعي، المتوفَّى سنة (794هـ).

اسم الكتاب الصَّحيح هو «البحر المحيط»، كما صرَّح المؤلِّف في المقدِّمة حيث قال: «وسمَّيته «البحر المحيط» والله أسأل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، مقرِّبًا للفوز بجنَّات النَّعيم، بمنِّه وكرمه». وكذا جاء في النُّسخ المخطوطة الَّتي اعتمدها المحقِّق عبد القادر عبد الله العاني في إخراج الكتاب، وراجعه الدُّكتور عمر سليمان الأشقر، إلاَّ أنَّه طبعه بعنوان «البحر المحيط في أصول الفقه»!

الكتاب السَّادس عشر: «توالي التَّأسيس»، تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفَّى سنة (852هـ).

قال الشَّيخ بكر أبو زيد في كتاب «التَّأصيل»: «تضمين من مقدِّمة كتاب ابن حجر العسقلاني: «توالي التَّأنيس لعوالي محمَّد بن إدريس» المطبوع غلطًا باسم: «توالي التَّأسيس» كما بيَّنته في «خبر الكتاب»[21].

الكتاب السَّابع عشر: «أسرار ترتيب القرآن»، تأليف جلال الدِّين السُّيوطي، المتوفَّى سنة (911هـ).

قال السُّيوطي: «وقد كنت أوَّلاً سمَّيْتُه «نتائج الفكر في تناسب السُّور»؛ لكونه من مستنتجات فكري كما أشرت إليه، ثمَّ عدلت وسمَّيْتُه: «تناسق الدُّرر في تناسب السُّور»؛ لأنَّه أنسب بالمسمَّى، وأزيد بالجناس، وبالله تعالى التَّوفيق، وإيَّاه أسأل حلاوة التَّحقيق بمنِّه ويمنه»[22].

وصرَّح به في كتابه «الإتقان» في قوله: «النَّوع الثَّاني والسِّتُّون، في مُناسبة الآيات والسُّوَر: وكتابي الَّذي صنعته في أسرار التَّنزيل كافل بذلك، جامع لمناسبات السُّور والآيات، مع ما تضمَّنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخَّصت منه مناسبات السُّور خاصَّةً في جزءٍ لطيف سمَّيتُه «تناسق الدُّرر في تناسب السُّور»[23].

أمَّا الاسم الَّذي طُبِع به الكتاب «أسرار ترتيب القرآن» فهو من انتحال الشَّيخ عبد القادر أحمد عطا[24].

الكتاب الثَّامن عشر: «الخُرَشِي على خليل»، أو «حاشية الخُرَشِي على خليل» كذا اشتهر الكتاب وطبع مرارًا، واسم الكتاب هو «فتح الجليل على مختصر خليل» كذا ورد في سائر النُّسخ المخطوطة.

الكتاب التَّاسع عشر: كتاب عبد الباقي الزُّرقاني المتوفَّى سنة (1099هـ)، اشتهر شرحه لمختصر خليل بـ «شرح الزَّرقاني» وكذلك طُبِعَ غير مرَّةٍ، إلاَّ أنَّ العنوان الصَّحيح للكتاب هو «حسن نتائج الفكر في كشف أسرار المختصر».

وهذا الصَّنيع شائع عند متأخِّري المالكيَّة، وما ذكر على وجه التَّمثيل لا الحصر.

❀❀❀

وممَّا تقدَّم تبرُز مكانة تحقيق عنوان الكتاب في سلك عمليَّة تحقيق التُّراث ونشره، كما يعرف أنَّ فنَّ تحقيق النُّصوص علمٌ مستقلٌّ مبنيٌّ على أصولٍ وضوابطَ، تلزم مراعاتها لمن أراد خوض غمار التَّحقيق، كما وُقف على جانب من آثار التَّحريف السَّيِّئة الواقعة في جملة العناوين.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.



(21) «التَّأصيل لأصول تخريج الأحاديث وقواعد الجرح والتَّعديل»، بكر أبو زيد (حاشية 17).

(22) «أسرار ترتيب القرآن»، السُّيوطي (67/1).

(23) «الإتقان في علوم القرآن»، السُّيوطي (369/3).

(24) راجع السَّبب الخامس من أسباب تحريف العناوين.

مراد قرازة
إمام. أم البواقي

قصيدة في

فجع الفؤاد بذكركم فتنهَّدا
وبدا له من فقدكم ما قد بدا

فسعيت في كيِّ القلوب لعلَّها
تنسى العلائق ما تذكَّر من حدا

فأنا بماضيَّ التَّعيس أعيش لا
بالحين أحظى أو أمنِّيني غدا

لمَّا ذكرت القبر تدنيه الوفاه
وزهور قلبي كيف يهجرها النَّدى

وعلمت من نفسي الشَّقيَّة ما جنت
ولقد وردت من المهالك موردا

خفت الحياة فما أراني واجلاً
إلاً من المحيا فما أخشى الرَّدى

فلبست ثوب الذُّلِّ قبل منيَّتي
وطرقت بابًا للزَّهادة منجدا

ولزمت طوق التَّائبين فلم أرم
فجًّا بعيدًا أو طريقًا موصدا

وبكيت ذنبي بكرةً ومعشِّيا
حتَّى بدا بصري كحيلا أرمدا

وندمت جرمًا لم أصبه وإنَّما
رامته نفسي والفؤاد تورَّدا

خفت الجليل فلا أراني آمنًا
مكر الإله وإن علوت الأسعدا

ورجوت عفوه والنَّجاة بأخرة
أرقى من الجنَّات فيها مقعدا

وحبست حبِّي في الإله وحزبه
وهواه أضحى من حياتي مقصدا

لا أبتغي عيش الدَّنيَّة بعدما
همَّ الأخيرة ردَّ عيشي أنكدا

سل عنِّي الدِّيوان يوم إجازتي
هل قد لقاني زاهيًا بها أسعدا

وسل الخليل ومن دعاني شاكرا
لنعيم دنياه الَّتي قد أرصدا

هل زدت فيها عن لوازم شكرها
فلقد رآني زاهدًا ومزهِّدا

وسل المطاعم والملابس كرَّة
ومراكب الخيلاء تحكي السُّؤددا

ومنازلا للقوم أضحت مفخرا
هل قارفت من ربعنا الفاني يدا

وسل الغواني هنَّ ربَّات الهوى
هل غرَّني منهنَّ سحر جوِّدا

فلكم ترامين الغرام بحضرتي
فرددت عن حوضي كواعب نهَّدا

وسل الصَّديق وقبله سل عاذلي
فالحقُّ ما شهدت به كتب العدا

هل كان لي من حاجة في غيِّهم
أم أنَّ خوفي من رجائي قيَّدا

رمت السَّراب من الحياة فأوغلت
نفسي ببحر للهموم ممهَّدا

ولمن رآني بعدها فلقد رأى
صخرا عتيدا أو رآني جلمدا

لا غمَّ لا همَّ ولا نصب بلى
زهد يزكِّي في شراييني الهدى

الزهد والاستقامة

وغدى بنا كالملهمات يمدّنا ... برقائق الأنفاس تبرا عسجدا
والذّكر يلزمني بكلّ وسيلة ... وبكلّ وقت كالمعلّق بالحُدا
وكأنّ مسّ الجنّ أدركني فلا ... أقضي بغير حديث مولا عبّدا
وشهادة التّوحيد جلّ كلامي ... يغشاها قلبي تاليا متعهّدا
أسماء ربّي أصبحت لي مهنة ... أقضي النّهار مفكّرا ومعدّدا
آياته في الكون تشغل خاطري ... وبكل ركن قد بنا لي مرصدا
وأدارس القرآن أحفظ متنه ... وأحسّن التّرتيل لحنا منشدا
وأحكّم القرآن في أمري إذا ... رمت الفعال فربّي أمسى السّيدا
وألازم الصّلوات في توقيتها ... أغشى المساجد كي أصلّي شاهدا
أما إذا حبست جوارحي مرّة ... فتراب أرضي كلّه لي مسجدا
وأقوم ليلي لا أعجّل نومتي ... حتّى يغالبني النّعاس فأرقدا
وأزكّي مالي لا أردّ مسوّلا ... إلا إذا كان المسوّل واجدا
وأكاثر الصّدقات أبغي مغنما ... يوم القيامة وافيا ومسدّدا
وأصوم يوما بعد يوم هكذا ... صوم النّبيّ أبو النّبيّ المقتدى
وأحجّ بيت الله أقضي منسكي ... وأكاثر العمرات ألتمس الفدى
وألبّي صوتا للجهاد وأفتدي ... وكأني وحدي من تقصّده النّدا
والأمر بالمعروف أمسى شريعتي ... وتنكّر العصيان فعلي عوّدا
وفضائل الأخلاق تلك سجيّتي ... ألقى بها الأحباب بلهى والعدا
وأجانب الحرمات أهجر أرضها ... أصحابها من كان فيها تعمّدا
شهد الإله بأنّني به عائذ ... ونوال وصله قد غدا لي مقصدا
فارحم أسيرك يا مدبّر توبتي ... وارأف بعبد قد أتاك مقيّدا
وانثر نعيما لا يرام ببابنا ... طورا فتسلينا بليل مفردا
إلاّ إذا ما الصّبح أهدى ضيفكم ... يوما جميلا أحمدا ومحمّدا
هذا أنا طيف يترجم تائبا ... رام القصيد بمعصمي فتجرّدا
والله يأجرني بقدر مقالتي ... لا بالفعال فلست ذاك الأوحدا
ويمدّنا بالفضل سيرا مثله ... فهو الكريم وحقّه أن يحمدا

تسميات لا أصل لها في الحج والعمرة

■ صديق أوبيش

إنَّ ممَّا شاع عند العوامِّ واشتهر على ألسنتهم؛ إطلاق تسميات لا أصل لها في الكتاب والسُّنَّة تتعلَّق بمناسك الحجِّ والعمرة وبعض المشاعر، ولم تكن معهودة عند السَّلف، لذا ارتأيت في هذا المقال التَّنبيه على خطإ هذه التَّسميات والألقاب مستندًا في ذلك إلى كلام أهل العلم، فأقول، وبالله التَّوفيق:

تسمية شعائر الحجِّ بـ«مظاهر الوثنيَّة» أو بـ«عادات الجاهليَّة»

إنَّه من أعظم الظُّلم وأبينه، الطَّعن في شرع الله المطهَّر، والعجب كلُّ العجب إذا صدر ذلك ممَّن ينتسب للإسلام، ممَّن طاشت عقولهم وسفهت أحلامهم، وما درى هؤلاء المساكين أنَّ شعائر الحجِّ مبناها على التَّعبُّد المحض والاتِّباع المجرَّد، ولا أدلَّ على ذلك أنَّه من بين شعائر الحجِّ تقبيلُ الحجر الأسود، وفي المقابل من ذلك رمي الجمرات، فلله الحكمة البالغة؛ فحجر نقبِّله وحجر نرميه، ممَّا يدلُّك أخي المسلم على أنَّ مناسك الحج اتِّباع محض لا غير، وتطبيق عملي لشهادة أن لا إله إلاَّ الله.

فكيف يسوغ لهؤلاء وصف الشَّريعة بـ«مظاهر الوثنيَّة»، وهي الَّتي خلَّصت العبادَ من رقِّ عبوديَّة الأصنام والأوثان، إلى رق عبوديَّة الله الواحد الدَّيَّان، ومن ظلمات الشِّرك والعصيان، إلى نور التَّوحيد والإيمان، ولا يشكُّ مرتابٌ أنَّ أدعياءَ هذا القول، لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، ولا غمرت أفئدتهم.

يقول الشَّيخ محمَّد رشيد رضا رحمه الله في «مجلَّة المنار»، وذلك ردًّا على من زعم أنَّ شعائر الحجِّ من مظاهر الوثنيَّة: «ما ذكره السَّائل في تقبيل الحجر الأسود [أي: كونه مظهرًا من مظاهر الوثنيَّة] قد سرى إليه من شبهات النَّصارى والملاحدة، الَّذين يشكِّكون المسلمين في دينهم بأمثال هذا الكلام المبنيِّ على جهل قائليه من جهة، وسوء نيَّتهم في الغالب من جهة أخرى، ومن عرف معنى العبادة يقطع بأنَّ المسلمين لا يعبدون الحجر الأسود، ولا الكعبة، ولكن يعبدون الله تعالى وحده باتِّباع ما شرعه فيهما، بل كان من تكريم الله تعالى لبيته أن صرَفَ مشركي العرب وغيرهم من الوثنيِّين والكتابيِّين الَّذين كانوا يعظِّمونه قبل الإسلام عن عبادته، وقد وضعوا فيه الأصنام وعبدوها فيه، ولم يعبدوه.

ذلك؛ أنَّ عبادة الشَّيء عبارة عن اعتقاد أنَّ له سلطةً غيبيَّةً يترتَّب عليها الرَّجاء بنفعه لمن يعبده، أو دفع الضَّرر عنه، والخوف من ضرِّه لمن لا يعبده، أو لمن يقصِّر في تعظيمه، سواءٌ كانت هذه السُّلطة ذاتيَّةً لذلك الشَّيء المعبود، فيستقلُّ بالنَّفع والضَّرر، أو كانت غير ذاتيَّة له بأن يعتقد أنَّه واسطة بين من لجأ إليه وبين المعبود الَّذي له السُّلطة الذَّاتيَّة، ولا يوجد أحدٌ من المسلمين يعتقد أنَّ الحجرَ الأسود ينفع أو يضرُّ بسلطة ذاتيَّة له، ولا أنَّ سلطتَه تقريبُ من يعبد ويلجأُ إليه إلى الله تعالى، ولا كانت العرب في الجاهليَّة تعتقد ذلك وتقوله في الحجر كما تقول في أصنامها: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 18].

وإنَّما عقيدة المسلمين في الحجر هي ما صرَّح به عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه عند تقبيله، قال: «إنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لا تضُرُّ ولا تَنْفَعُ، ولولا أَنِّي رأَيْتُ رسُولَ الله ﷺ يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ»، رواه الجماعة كلُّهم؛ أحمد والشَّيخان وأصحاب «السُّنن».

قال الطَّبري: «إنَّما قال عمر ذلك... لأنَّ النَّاس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي أن يَظُنَّ الجُهَّالُ أنَّ

استلامَ الحجر الأسود من باب تعظيم الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهليَّة، فأراد أن يعلِّمَ النَّاسَ أنَّ استلامَهُ اتِّباعٌ لفعل رسول الله ﷺ، لا لأنَّ الحجر يضرُّ وينفع بذاته» اهـ.

بقي أن يقال: فما هي حكمة جعل ما ذكر من العبادة؟ وهل يصحُّ ما قيل من أنَّ النَّبيَّ ﷺ تركه في الكعبة مع أنَّه من آثار الشِّرك تأليفًا للمشركين، واستمالةً لهم إلى التَّوحيد؟ والجواب: أنَّ الحجرَ ليس من آثار الشِّرك، ولا من وضع المشركين، وإنَّما هو من وضع إمام الموحِّدين إبراهيم ﷺ، جعله في بيت الله ليكون مبدأ للطَّواف بالكعبة يُعْرَفُ بمجرَّد النَّظَر إليه، فيكون الطَّواف بنظام لا يضطرب فيه الطَّائفون، وبهذا صار من شعائر الله، يُكْرَمُ ويقَبَّل، ويُحْتَرَم لذلك كما تحتَرَمُ الكعبة لجعلها بيتًا لله تعالى، وإن كانت مبنيَّةً بالحجارة، فالعبرة بروح العبادة: النِّيَّة والقصد، وبصورتها الامتثالُ لأمر الشَّارع، واتِّباعُ ما ورد بلا زيادة ولا نقصان، ولهذا لا تُقَبَّلُ جميع أركان الكعبة عند جمهور السَّلف.

وجملة القول: إنَّ مناسك الحجِّ من شريعة إبراهيم، وقد أبطل الإسلام كلَّ ما ابتدعته الجاهليَّة فيها من وثنيَّتها وقبيح عملها؛ كطوافهم بالبيت عراةً، وإنَّ الكعبة من بناء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السَّلام - كما هو ثابت عند العرب بالإجماع المتواتر بينهم، وكانوا يعظِّمونها هم والأمم المجاورة لهم، بل والبعيدة عنهم كالهنود، ولمَّا كانت الكعبة قد جُدِّد بناؤها قبل الإسلام وبعده، لم يبقَ فيها حجرٌ يُعلم باليقين أنَّه من وضع إبراهيم إلاَّ الحجر الأسود؛ لامتيازه بلونه وبكونه مبدأَ المطاف، كان هو الأثر الخاصُّ المذكِّر بنشأة الإسلام الأولى في ضمن الكعبة المذكِّرَة بذلك بوضعها وموضعها وسائر خصائصها، زادها الله حفظًا وشرفًا.

إذا وعيت ما تقدَّم كان نورًا بين يديك تبصر به حكم سائر مناسك الحجِّ - أعني بها ممَّا تَعَبَّدَنا الله تعالى بها -، لتغذية إيماننا بالطَّاعة والامتثال، سواءٌ عرفنا سبب كلِّ عمل منها وحكمته، أم لا، وأنَّها إحياء لدين إبراهيم أبي الأنبياء وإمام الموحِّدين المخلصين، وتذكير بنشأة الإسلام ومعاهده الأولى، وإنَّ لاستحضار ذلك لتأثيرًا عظيمًا في تغذية الإيمان وتقوية الشُّعور به، والثِّقة بأنَّه دين الله الخالص الَّذي لا يقبل غيره». اهـ من «مجلَّة المنار» (675/16) بتصرُّف.

تسمية القادم من الحجِّ أو العمرة بـ«الحاج»

وهذه التَّسمية قد عمَّت وطمَّت، وانتشرت بين أوساط المسلمين انتشارَ النَّار في الهشيم، وهي ممَّا لا أصلَ لها في الشَّرع، ولم يثبت أنَّ سلفَ هذه الأمَّة كانوا يتسمَّوْنَ بذلك ويُخشَى أن يجرَّهم ذلك إلى الرِّياء، ذكر الشَّيخ الألباني رحمه الله أن هذا من البدع، كما في كتابه: «مناسك الحجِّ والعمرة» (ص55).

تسمية الطَّعام الَّذي يُصنع للحاجِّ قبل سفره بـ«عَشاء الحاجِّ»

وهذا الصنيع قد سرى في عديد من المناطق، وكثيرٌ من النَّاس اليوم يصنعه، وهو ممَّا لا يسوغ شرعًا، وهذا بغضِّ النَّظر عن التَّسمية؛ لأنَّ ما أضيف إلى حكم شرعيٍّ يحتاج إلى دليل يصحِّحُه، كما هو مقرَّرٌ[1].

وإنَّما السُّنَّة في هذا أن يصنع المرء طعامًا عند قدومه من سفره، لما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ: «أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ نَحَرَ جَزُورًا أَوْ بَقَرَةً» أخرجه البخاري (3089) ويسمَّى بـ«النَّقيعة»، وهي الطَّعام الَّذي يُصنع للقادم من السَّفر، وهي مأخوذةٌ من النَّقع وهو الغبار؛ لأنَّ المسافر غالبًا ما يتلبَّس به، ويدخل في ذلك من قدِم من حجٍّ أو عمرة، والله الموفق.

تسمية مكَّة بـ«المكرَّمة» والمدينة بـ«المنوَّرة»

لا يعتري المسلم أدنى شكٍّ في فضل مكَّة والمدينة، لكن رغم ذلك لا ينبغي وسمُ أحدهما بوصف لازم له إلاَّ ما دلَّ الدَّليل الصَّحيح على ثبوته، لذا فتسمية مكَّة بالمكرَّمة والمدينة بالمنوَّرة، ممَّا لم يرد فيه دليل، قال الشَّيخ بكر أبو زيد: «شاع في العصور المتأخِّرة قولهم (مكَّة المكرَّمة) (والمدينة المنوَّرة) وهما أي: المكرَّمة والمنوَّرة وصفان مناسبان، لكن لا يعرف ذلك عند المتقدِّمين من المؤرِّخين وغيرهم، وهو على ما يظهر من محدثات الأعاجم التُّرك إبَّان نفوذهم على الحرمين وقد بيَّنت ذلك في بعض ما كتبته من قبل» انظر «خصائص جزيرة العرب» (39).

(1) انظر: فتوى رقم (749) من فتاوى الحجِّ، للشَّيخ فركوس - حفظه الله - ضمن موقعه على النَّت.

تسمية المدينة النَّبويَّة بـ«يثرب»

والنَّهي عن هذه التَّسمية ممَّا قد وردت به السُّنَّة، كما روى البخاري (1871) ومسلم (1382). عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَقُولُونَ يَثْرِبُ! وَهِيَ الْمَدِينَةُ**».

قال الحافظ في الفتح (87/4): «قَوْلُه: «**يَقُولُونَ يَثْرِبُ! وَهِيَ الْمَدِينَةُ**» أَيْ: أَنَّ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ يُسَمِّيهَا يَثْرِب، وَاسْمهَا الَّذِي يَلِيق بِهَا الْمَدِينَة».

قال النَّووي رحمه الله: «إنَّما كره تسميتها يثرب لأنَّه من التَّثريب، وهو التَّوبيخ والملامة، وكان النَّبيُّ ﷺ يحبُّ الاسم الحسن، ويكره الاسم القبيح».

تسمية من ارتدى ملابس الإحرام بـ«المحرم» قبل النِّيَّة

الأصل في الإحرام أنَّه يُطْلَقُ على نيَّة الدُّخول في النُّسُك، حجًّا كان أو عمرةً، بَيْدَ أنَّه من الأخطاء الَّتي يقع فيها كثيرٌ من النَّاس، اعتقادهم أنَّه بمجرَّد ارتداء لباس الإحرام، فقد دخل المرء في نُسُكه، وهذا غلطٌ بيِّنٌ، بل لا بدَّ للإحرام من نيَّة الدُّخول في النُّسُك، لذا فمن الخطإ تسمية من ارتدى ملابس الإحرام بالمُحْرِم، وذلك قبل أن ينوي[2].

(2) انظر: «شرح زاد المستقنع» (باب المناسك). للشَّيخ عبد الكريم الخضير

تسمية ميقات «ذو الحليفة» بـ«أبيار علي»:

وهذه التَّسمية شاعت بين الأنام، وهي ممَّا لا يصحُّ نسبتُها إلى عليٍّ رضي الله عنه، كما نبَّه على ذلك شيخ الإسلام رحمه الله، في معرض ذكره ميقات «ذو الحليفة»: «وتُسَمَّى وادي العقيق ومسجدها يُسَمَّى مسجد الشَّجرة، وفيها بئر تسمِّيها جهَّال العامَّة «بئر علي» لظنِّهم أنَّ عليًّا قاتل الجنَّ بها وهو كذب؛ فإنَّ الجنَّ لم يقاتلهم أحدٌ من الصَّحابة، وعليٌّ أرفع قدرًا من أن يَثْبُتَ الجنُّ لقتاله، ولا فضيلة لهذا البئر ولا مذمَّة، ولا يستحبُّ أن يرمي بها حجرًا ولا غيره».

بل هذه التَّسمية من صنيع الرَّافضة، قال الشَّيخ بكر أبو زيد رحمه الله في كتابه «معجم المناهي اللَّفظيَّة» (ص64): «وهي تسمية مبنيَّة على قصَّة مكذوبة، مختَلَقَة موضوعة، هي: أنَّ عليًّا رضي الله عنه قاتل الجنَّ فيها، وهذا من وضع الرَّافضة لا مسَّاهم الله بالخير ولا صبَّحهم؛ فلنهجر التَّسمية المكذوبة ولْنَسْتَعْمِلْ ما خرج التَّلفُّظ به بين شفتي النَّبيِّ ﷺ ولْنَقُلْ: «ذو الحليفة»».

تسمية باب إبراهيم بـ«باب إبراهيم الخليل»

شاع وذاع عند كثير من النَّاس أنَّ باب إبراهيم والَّذي يُعَدُّ أحدَ أبواب الحرم المكِّي، أنَّ المقصود بإبراهيم هو إبراهيم الخليل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، لذا فإنَّ الكثير منهم يطلق عليه «باب إبراهيم الخليل»، ولكنَّ الَّذي في حقيقة الأمر خلافُ ذلك، يقول الشَّيخ علي الطَّنطاوي رحمه الله: «من الطَّرائف الَّتي وجدتُّها وأنا أنظر في الكتب أنَّ باب إبراهيم المعروف الآن، وهو بقرب باب الحَزْوَرَة، ليس منسوبًا إلى سيِّدنا إبراهيم كما يظنُّ النَّاس؛ بل هو منسوب إلى خيَّاط معمَّر كبيرُ السِّنِّ اسمُه إبراهيم، كان يجلس عند هذا الباب فنُسب إليه وخُلِّدَ اسمه واشتهر. فليست الشُّهرة مقياسًا للعظمة، بل ربَّما اشتهر من لا يستحقُّ الشُّهرة وربَّما نُسيَ من كان مستحقًّا لخلود الذِّكر» انظر «فصول في الثَّقافة والأدب» (ص33).

تسمية ميزاب الكعبة بـ«مِيزاب الرَّحمة»

وهو ذلك المَصَبُّ الَّذي على سطح الكعبة ينزل منه الماء حين تهاطل الأمطار، ولكنَّ إطلاقَ تسمية هذا الميزاب بـ«ميزاب الرَّحمة» ممَّا لم يدلَّ عليه دليل، قال الشَّيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه «معجم المناهي اللَّفظيَّة» (ص519): «[أي:ومن من المناهي اللفظية]تسمية: «ميزاب الكعبة» بذلك، لا أعرفُ لها أصلاً في السُّنَّة، ولا في المأثور عن السَّلف».

وللتَّنبيه ـ أيْضًا ـ: فمن البدع المنتشرة الآن في هذا المكان، التَّبرُّك بالمطر النَّازل من ميزاب الكعبة، وكذا تحرِّي الدُّعاء تحت الميزاب» انظر كتاب «مناسك الحجِّ والعمرة» (ص50) للشَّيخ الألباني رحمه الله.

تسمية الحجر الأسود بـ«الأسعد»

وهـذه التَّسـمية لا زالـت دارجة على ألسـنة بعض النَّاس، وبخاصَّة كبار السِّنِّ منهم، وهـي تسـمية بدعيَّةٌ، كما نبَّه على ذلك أهل العلم، قال الشَّـيخ ابن عثيمين في «الشَّـرح الممتع» (7/232) ما نصُّـه: «والحجـر الأسـود هـو الَّـذي في الرُّكـن الشَّـرقي الجنوبـي من الكعبة، ويوصـف بالأسـود لسـواده، ويخطـئ مـن يقـول الحجر الأسـعد؛ فإنَّ هذه تسمية بدعيَّة، فإنَّ اسمَه الحجرُ الأسودُ، لكن من العوامِّ من يقول: «الحجر الأسـعد»، فيجعل هذا الحجر من السُّـعداء، بل أسعد السُّعداء؛ لأنَّ الأسـعد اسـم تفضـيل محلًّى بـ «أل» يدلُّ على أنَّه لا أحدَ يسـاميه في السَّعادة، وهذا من الغلوِّ بلا شـكٍّ، بل نقول الحجر الأسود كما هو أسود».

وقال رحمه الله في موضـع آخر: «والعجيب أنَّ بعضَ الجهلة لا يسمِّيه الحجر الأسود، يسـمِّيه الحجـر الأسـعد وهـذا غلـط، الصَّـحابة يسـمُّونه الحجر الأسود وأنتم أشـدُّ تعظيمًـا له من الصَّـحابة؟!» انظر «تعليـق الشَّـيخ علـى صـحيح البخاري» (كتاب الحجِّ) (حديث رقم 1494).

ولعـلَّ هـذه التَّسـمية أصـلها مـن الرَّوافض، كمـا عُهـد منهـم مثـل هذه التَّسميات، ولقد سُمع منهم أنَّهم يُنادون الحجـر الأسـود بالحجر الأسـعد ليشهد لهم، فيقولون: «يا أسـعد اشهد، يا أسعد اشـهد» ولعلَّ مسـتندَهم في ذلك ما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه يشـهد لمن استلمه يوم القيامة؛ وهـذا النِّداء باطل لا أصـل له، وما ثبت في السُّنَّة غنية عن هذه التَّسمية، والله أعلم.

تسمية الحجر بـ«حجر إسماعيل»

وهذه التَّسـمية ممَّا قـد درجت على ألسـنة الكثير، وهي تسـميةٌ لا أصـل لها في السُّـنَّة، لذا يقول الشَّـيخ ابن عثيمين: «هـذا الحجر يسـمِّيه كثـيرٌ مـن العوام حجر إسماعيل، ولكنَّ هذه التَّسمية خطأ ليس لها أصل؛ فإنَّ إسماعيل لم يعلم عن هـذا الحجْر؛ لأنَّ سـببَ هـذا الحجْر أنَّ قريشًـا لمَّا بنـت الكعبة، وكانـت في الأوَّل على قواعد إبراهيم ممتدَّةً نحو الشَّمال، فلمَّا جمعـت نفقة الكعبـة وأرادت البناء قصـرت النَّفقة فصـارت لا تكفـي لبناء الكعبة علـى قواعد إبراهيم، فقالوا نبني ما تحتمله النَّفقة، والباقي نجعله خارجًا ونحَجِّـر عليـه حتَّـى لا يطـوف أحد من دونه، ومن هنا سُـمِّيَ حِجْراً، لأنَّ قريشًـا حَجَّرَتْه حين قصـرت بهـا النَّفقة، ولهذا قـال النَّبيُّ ﷺ لعائشـة رضي الله عنها: «لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَـكِ حَدِيثُو عَهْـدٍ بِكُفْرٍ لَبَنَيْـتُ الكَعْبَةَ عَلَى قَوَاعِـدِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ، بَابًـا يَدْخُلُ مِنْـهُ النَّاسُ، وَبَابًـا يَخْرُجُونَ مِنْهُ»[3].

موضع قدمي إبراهيم

وهمـا الأثـران المنحوتـان الموجودان عنـد مقـام إبراهيـم عليه السلام، فكثير من النَّاس يعتقـد أنَّهمـا ينسـبان لإبراهيم ـ عليـه الصَّـلاة والسَّـلام ـ، ولكـنَّ الأمرَ خـلافُ ذلك، قـال الشَّـيخ ابـن عثيمين رحمه الله في كتـاب: «فتـاوى أركان الإسـلام» (ص547): «لا شـكَّ أنَّ مقـامَ إبراهيم ثابتٌ، وأنَّ هذا الَّذي بُنِيَ عليه الزُّجاج هو مقـام إبراهيم، لكنَّ الحفـر الَّذي فيه لا يظهر أنَّها أثرُ القدمين؛ لأنَّ المعروف من النَّاحية التَّاريخية أنَّ أثرَ القدمين قد زال منذ أزمنةٍ متطاولة، ولكن حفرت هذه أو صُنِعَت للعلامة فقط، ولا يمكن أن نجزم بأنَّ هذا الحفر هو موضع قدمي إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ» اهـ.

[3] «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (12/491).

قبَّة آدم

وهذه القبَّة على مَقْرَبَة من «عَرَفَات»، وكثـيرٌ مـن النَّاس ينسـبها لآدم ـ عليـه الصَّـلاة والسَّـلام ـ، وقد أحـدث النَّاسُ فيهـا بدعًا ما أنزل الله بها من سـلطان، يقول شيخ الإسلام رحمه الله في معرض ذكره التَّوسُّـل بالأنبياء والصَّـالحين، وبيان ما يُشْـرَعُ فيه، وما لا يُشْرَعُ: «ومن ذلك [أي: ومـن الأمور غير المشـروعة] القبَّـة الَّتي عنـد باب «عرفات»، الَّتـي يقال: إنَّها قبَّة آدم؛ فإنَّ هذه لا يُشْـرَعُ قصدها للصَّلاة والدُّعـاء، باتِّفـاق العلمـاء» «اقتضـاء الصِّراط المستقيم» (2/338).

وقد عدَّ الشَّـيخ الألبـاني رحمه الله دخول القُبَّـة الَّتي على جبل الرَّحمة ويسـمُّونها قبَّـة آدم والصَّـلاة فيهـا والطَّـواف بها كالطَّواف بالبيت؛ من البدع المحدثات.

انظر «حجَّة النَّبيِّ ﷺ» (ص123).

رجم الشَّيطان

مـن بين مناسـك الحـجِّ الَّتي يُشْـرَعُ للحـاجِّ فِعْلُهـا رمي الجمـرات، وقد ذكر أهـل العلـم أنَّ الحكمـة في ذلـك هـي: «اقتـداءً بأبينـا إبراهيـم الخليل عليه السلام حـين اعترض لـه الشَّـيطان في هـذه المواقـف، وبنبيِّنا محمَّد ﷺ حين شَـرع ذلك لأمَّته في حجَّة الوداع» انظر «الشَّـيخ ابـن بـاز رحمه الله في مجموع فتاويـه» (17/ 310) وغير ذلك من الحكم المذكورة.

لكن ما شـاع اليوم في أذهان الكثير، أنَّهم يرجمـون الشَّـيطان حقيقةً، وذلك عند رمي الجمرات؛ فهذا اعتقادٌ فاسـدٌ لا دليـل عليـه مـن الشَّـرع، وممَّـا يزيد هذا الأمر علَّـةً والطِّينَ بلَّةً، إذا صـاحب ذلك سبٌّ وشـتم لهذه الشَّـياطين، فهذا أشـدُّ وأعظم، وما علم هـؤلاء أنَّها عبادةٌ شُرِعَتْ لإقامة ذكر الله لا غير.

ولذا قال الشَّـيخ ابن عثيمين في بيان الأخطـاء الَّتـي يفعلهـا بعضُ الحُجَّاج: «اعتقادهم أنَّهـم برميهم الجمارَ يرمون الشَّـيطانَ؛ ولهذا يُطلقون اسم الشَّياطين على الجمـارِ، فيقولون: رمينا الشَّـيطان الكبير أو الصَّـغير أو رمينا أبا الشَّياطين يَعنون به الجمرة الكـبرى جمرة العقبة، ونحو ذلك من العبارات الَّتي لا تليق بهذه المشـاعر» انظـر: كتـاب «مناسـك الحجِّ والعمرة والمشروع في الزِّيارة» (ص109) للشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله.

وقال رحمه الله في موضع آخر:

«كان إبراهيم. عليه الصَّلاة والسَّلام . يرميـه [أي: إبليـس] بهذه الجمرات، ولا يسـتلزم أن يكون رمينا رميًا لإبليس؛ لأنَّ إبليـس لم يتعرَّض لنا في هـذه الأماكن» انظـر «مجموع فتاوى ورسـائل العثيمين» (24/500 . 501) بتصرُّف.

وأما ما ثَبَـتَ عَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنه، رَفَعَهُ إِلى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا أَتَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّه المَنَاسِكَ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ جَمْرَةِ العَقَبَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الجَمْرَةِ الثَّانِيَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الجَمْرَةِ الثَّالِثَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ**» قَالَ ابْنُ عَبَّاس: «الشَّيْطَانَ تَرْجُمُون وَمِلَّةَ أَبِيكُمْ تَتَّبِعُونَ» انظـر «صـحيح التَّرغيـب والتَّرهيـب» (1156).

فالمقصـود منه أن يتذكَّر المسلم عند رميـه للجمـار تلـك الحادثـة الجليلة لا غير، وليس هناك شـيطان قابـعٌ ليرميَه الحُجَّاج، كمـا قال الشَّـيخ الألباني رحمه الله انظر «الموسـوعة الفقهيَّة الميسَّرة في فقه الكتـاب والسُّـنَّة المطهَّـرة» (404/4) للعوايشة.

***

لكن ما شاع اليوم في أذهان الكثير، أنَّهم يرجمون الشَّيطان حقيقةً، وذلك عند رمي الجمرات؛ فهذا اعتقادٌ فاسدٌ لا دليل عليه من الشَّرع



تسمية قبور الصَّحابة الموجودة بمكَّة والمدينة بـ«الآثار الإسلاميَّة»

من نظر بعين البصيرة لا بالعين الباصرة إلى الشَّرع المطهَّر، وجد أنَّ الشَّريعة الغرَّاء قطعت كلَّ وسيلة أو ذريعة إلى الشِّرك، وذلك حسمًا لمادَّته وسدًّا لطرقه.

ومن ذلك، تسمية قبور الصَّحابة رضي الله عنهم بـ«الآثار الإسلاميَّة»، فكلُّ ذلك لا يسوغ؛ قال الشَّيخ الفوزان ـ حفظه الله ـ في ردِّه على مقال نُشِرَ بجريدة «عكاظ» السُّعوديَّة يوم الثُّلاثاء 1427/4/11هـ بعنوان: «الآثار الإسلاميَّة والأوثان» ما نصُّه: «هل تسمية القبور بالآثار الإسلاميَّة لها أصل في الكتَّاب والسُّنَّة وهدي السَّلف؟ فالرَّسول ﷺ وأصحابه وعموم المسلمين سمَّوْهَا قبورًا ولم يُسَمُّوهَا آثارًا، وحثَّ ﷺ على زيارتها الشَّرعيَّة للاعتبار والاتِّعاظ والدُّعاء لأموات المسلمين، قال ﷺ: «زُورُوا القُبُورَ»، ولم يقل: «زُورُوا الآثَارَ»اهـ.

وللتَّنبيه؛ فإنَّ هذا الحكم ليس خاصًّا بقبور الصَّحابة فقط، بل هو شاملٌ لما عداه من القبور؛ لأنَّ الحكمَ يدور مع علَّته وجودًا وعدمًا كما هو مقرَّر.

ومن هذا الباب ـ أيضًا ـ تسمية القبور بـ«المشاهد»، أو بـ«المزارات»، وذلك مضاهاةً لبيوت الله، وتضليلاً على النَّاس، وذرًّا للأعين بالرَّماد»[4].

(4) انظر «إغاثة اللَّهفان» (195/1).

تسمية جبل عرفات بـ«جبل الرَّحمة»

كثيرٌ من النَّاس يطلق تسمية «جبل الرَّحمة» على «جبل عرفة»، وهو غير وارد في الكتاب والسُّنَّة؛ فقد سئل الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله عن حكم تسمية «جبل عرفة» بـ«جبل الرَّحمة» فأجاب بقوله: «هذه التَّسمية لا أعلم لها أصلاً من السُّنَّة، أي: أنَّ الجبلَ الَّذي في عرفة، الَّذي وقف عنده النَّبيُّ ﷺ يُسَمَّى «جبل الرَّحمة»، وإذا لم يكن له أصلٌ من السُّنَّة فإنَّه لا ينبغي أن يُطلق عليه ذلك، والَّذين أطلقوا عليه هذا الاسم لعلَّهم لاحظوا أنَّ هذا الموقف موقفٌ عظيمٌ، تتبيَّن فيه مغفرةُ الله ورحمتُه للواقفين في عرفة فسمَّوْهُ بهذا الاسم، والأَوْلى ألاَّ يسمَّى بهذا الاسم، وليقال: «جبل عرفة»، أو الجبل الَّذي وقف عنده النَّبيُّ ﷺ، وما أشبه ذلك»[5].

وقال الشَّيخ بكر أبوزيد رحمه الله: «جبل الرَّحمة: في شرق مشعر عرفات، جبلٌ صغيرٌ في جنوبيه صخرات كبار، ويُسَمَّى: «جبل عرفة» أو «جبل عرفات» وقد شاع على ألسنة النَّاس، وفي أقلام الكتابة تسميته باسم: «جبل الرَّحمة» وعند بادية نجد باسم: «القُرَين» ولا أصل لواحدة من هذين الوصفين والله أعلم»[6].

(5) انظر «دليل الأخطاء الَّتي يقع فيها الحاجُّ والمعتمر».
(6) «معجم المناهي اللَّفظية» (ص 213).

تسمية المسجد الأقصى بـ«الحرم القدسي الشَّريف» أو بـ«ثالث الحرمين»

وهذا الاعتقاد لا زال سائدًا في أذهان كثير من المسلمين اليوم، وهذه التَّسمية غير صحيحة، إذْ لم يثبت في السُّنَّة، إلاَّ حَرَمَان وهما حَرَمُ مكَّة وحَرَمُ المدينة، وهذا باتِّفاق أهل العلم، لذا قال شيخ الإسلام: «والأقصى اسمٌ للمسجد كلِّه ولا يُسَمَّى هو ولا غيرُه حرمًا، وإنَّما الحرم بمكَّة والمدينة خاصَّةً» «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (346/2).

وقال في موضع آخر:

«وليس ببيت المقدس مكانٌ يُسمَّى حرمًا» «مجموع الفتاوى» (27/14).

وقال الشَّيخ عبد المحسن العبَّاد ـ حفظه الله ـ:

«إطلاق ثالث الحرمين على المسجد الأقصى، فإنَّ الحرمين هما مكَّة والمدينة وليس لهما ثالث، والتَّعبير الصَّحيح أن يُقال: ثالث المسجدين أي: المُشَرَّفين المُعَظَّمَين»[7].

وقال الشَّيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

«والظَّاهر أنَّها مُوَلَّدَةُ الاستعمال في هذا العصر ولم أرها لدى السَّلف والله أعلم، وأمَّا ما يوجد في: «الأردن» وفي «مصر» كقولهم: حرم الحسين وحرم السِّتِّ نفيسة فهذا من البدع المحدثة» «معجم المناهي اللَّفظيَّة» (62/1).

أسأل الله عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، لي ولكم التَّوفيق والسَّداد، والثَّبات والنَّجاة إلى الممات، والله الموفِّق.

(7) «الرَّدُّ على الرِّفاعي والبوطي» (18/1).







حي باحة (03)، رقم (28) الليدو

المحمدية . الجزائر

الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

(جوال): 92 99 06 (0559)

التوزيع (جوال):

08 53 62 (0661)

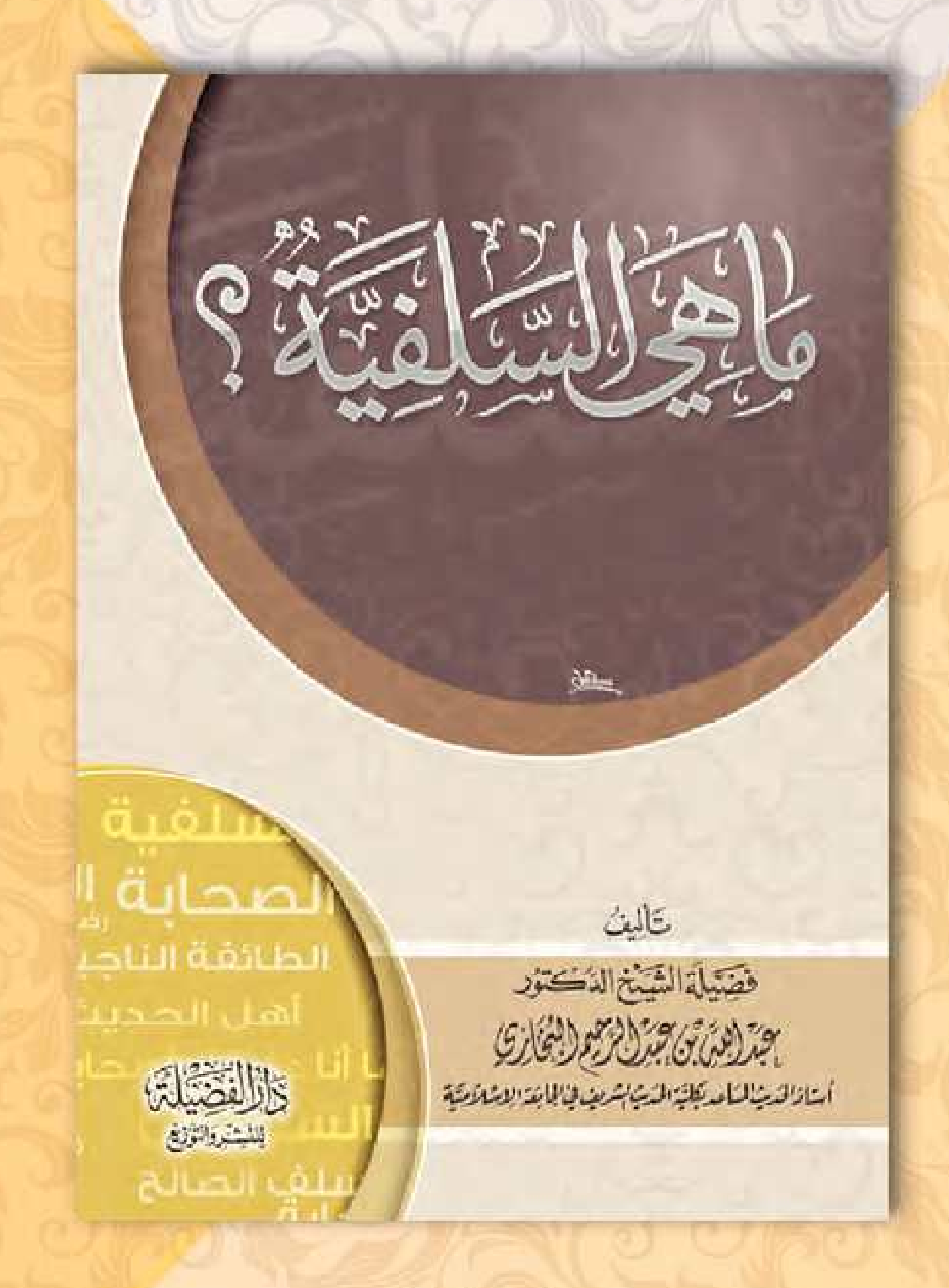
البريد الإلكتروني:

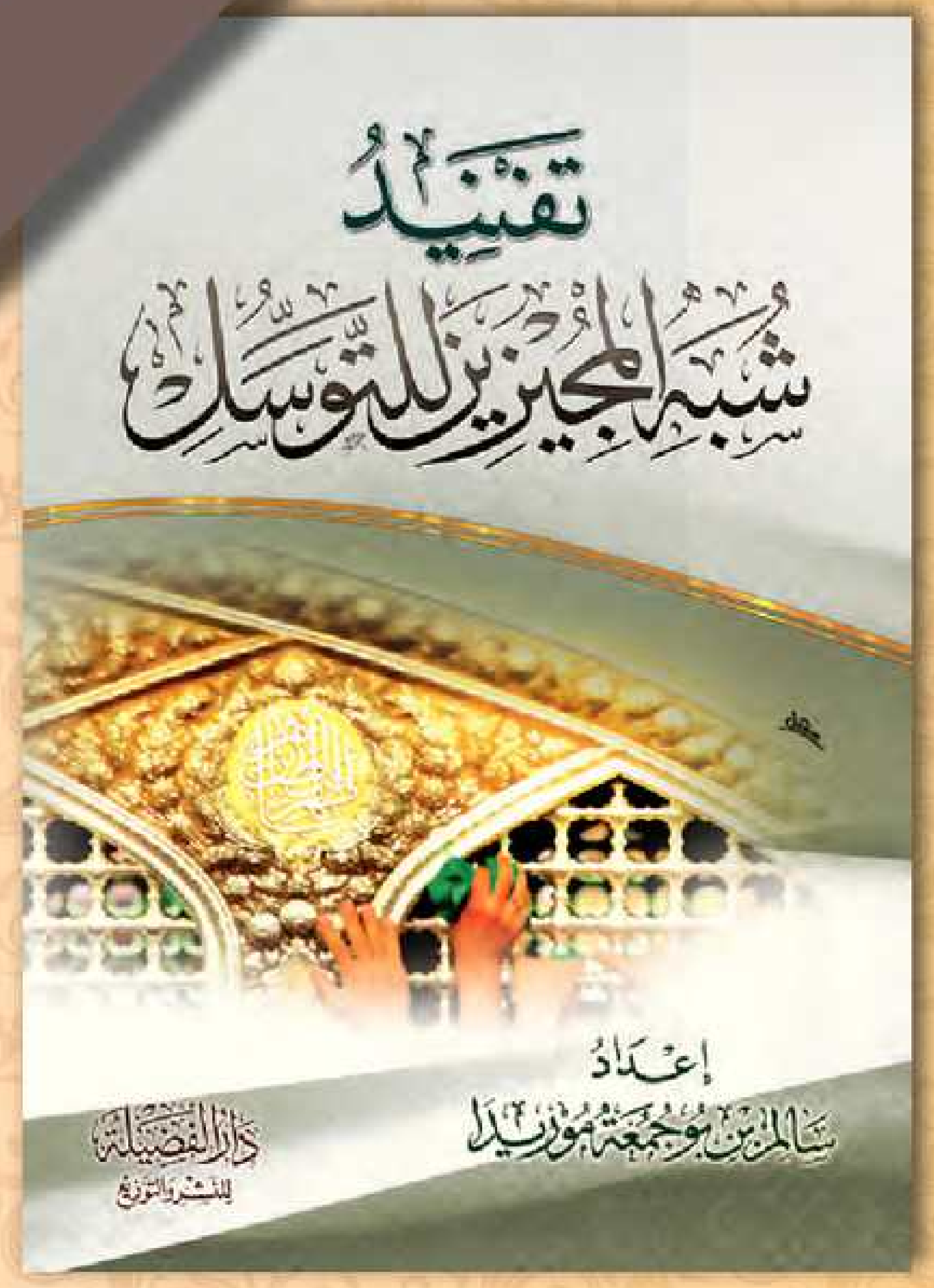
darelfadhila@hotmail.com

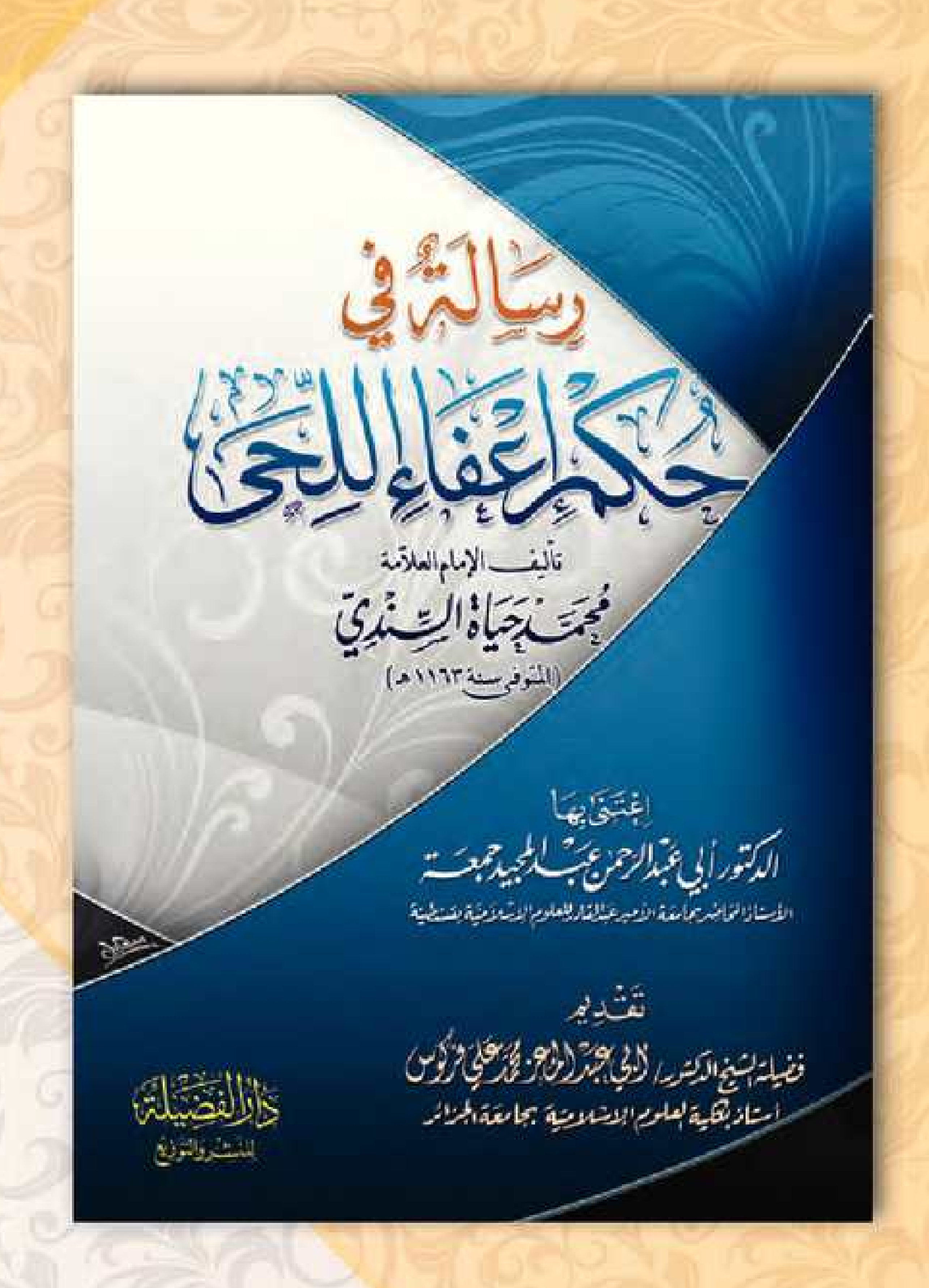
الموقع على الشبكة العنكبوتية:

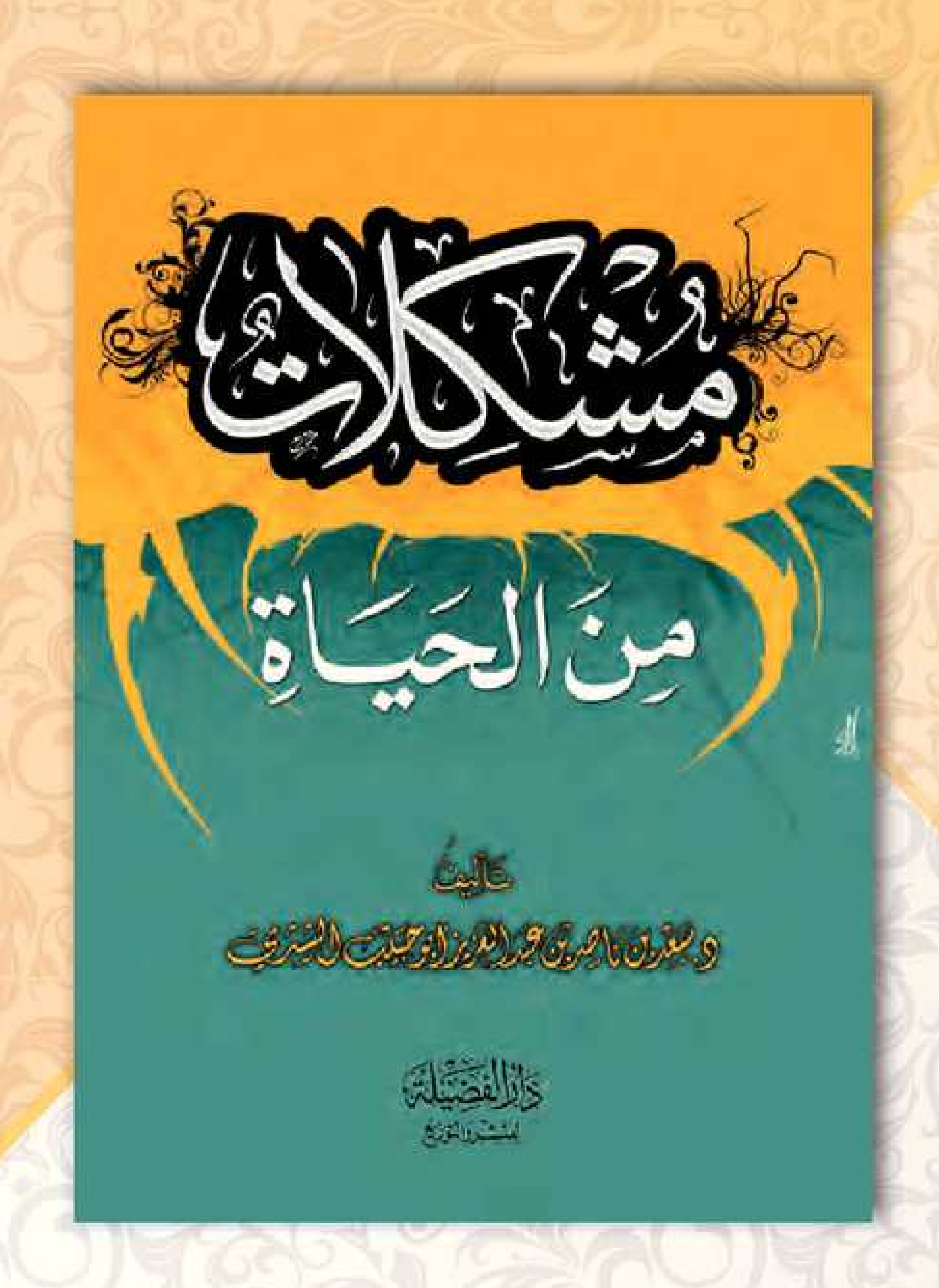
www.rayatalislah.com

قريبا


ماهي السلفية؟
تأليف
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحيم البخاري
دار الفضيلة
للنشر والتوزيع


تفنيد
شبه المجيزين للتوسل
إعداد
سالم بن بوجمعة بوزيد
دار الفضيلة
للنشر والتوزيع


رسالة في
حكم إعفاء اللحى
تأليف الإمام العلامة
محمد حياة السندي
(المتوفى سنة ١١٦٣هـ)
اعتنى بها
الدكتور أبي عبد الرحمن عبد المجيد جمعة
تقديم
فضيلة الشيخ الدكتور أبي عبد المعز محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر
دار الفضيلة
للنشر والتوزيع


مشكلات
من الحياة
تأليف
د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز أبو حبيب الشثري
دار الفضيلة
للنشر والتوزيع



واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

□ منافع الحجِّ □

❁ يقول الشَّيخ محمَّد الخضر حسين رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وللحجِّ فوائد كثيرة العدد، عظيمة الخطر من أهمِّها: التَّعارف، ثمَّ التَّوادد، ثمَّ الاتِّحاد، ثمَّ التَّعاون على إقامة المصالح العامَّة، ودفع الأخطار الفادحة.

ولو اتَّجهت أنظار الشُّعوب الإسلاميَّة إلى هذه الغاية الخطيرة بعناية، وعملوا لها بحكمة وحزم، لوجدوا أكبر مساعد على أن تتوافق آراؤهم، وتتقارب مشاربهم، وتتماثل مراميهم، فيستعيدوا سيادتهم، ويعيشوا في عزَّةٍ وطمأنينةٍ».

[«الأعمال الكاملة» (418/1)]

□□□

□ الكسَلُ سبَب الهمِّ والغمِّ □

❁ قال الإمامُ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ولهذا تجدُ الكُسَالى أكثَر النَّاس همًّا وغمًّا وحُزنًا، ليسَ لهم فَرحٌ ولا سُرورٌ؛ بخلاف أربَاب النَّشاط والجدِّ في العَمل أيِّ عمَلٍ كانَ؛ فإن كانَ النَّشَاطُ في عمَلٍ هُم عالمونَ بحُسن عَوَاقبه وحلاوَة غايته كانَ التذاذُهم بحُبِّه، ونشاطُهُم فيه أقوَى؛ وباللَّه التَّوفيق».

[«روضة المحبين» (ص250)]

□□□

□ شُؤم الخروج على الحاكم □

❁ قال الإمام الذَّهبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وكثُرت العُلماءُ بالأندلُس في دولته ـ أي الحَكَم بن هشام الأمَوي ـ، حتَّى قيلَ: إنَّه كانَ بقُرطبة أربَعَة آلاف متقَلِّس مُتَزيِّين بزيِّ العُلماء، فلمَّا أرادَ اللهُ فناءَهُم، عزَّ عليْهم انتهَاكُ الحَكَم للحُرُمات، وائتَمَرُوا ليخلَعُوه، ثمَّ جيَّشُوا لقتَاله، وجَرَت بالأندلُس فتنةٌ عظيمةٌ على الإسلام وأهله، فلا قوَّة إلَّا باللَّه».

ثمَّ نقَل عن ابن مُزين في «تاريخه»: «وقَالوا: إنَّه غيرُ عَدْل، ونكثُوه في نفُوس العَوامِّ، وزعَمُوا أنَّه لا يحلُّ المكثُ ولا الصَّبْر على هذه السِّيرة الذَّميمَة، وعوَّلوا على تقديم أحد أهل الشُّورى بقُرطُبة...؛ فكان ممَّن فرَّ: عيسَى بن دينَار الفَقيه، ويحيَى بن يحيَى الفَقيه صاحب مالك، وقَرعوس ابن العبَّاس الثَّقفي؛ وقُبِضَ على ناسٍ كأبي كَعب، وأخيه، ومالك بن يَزيد القَاضي، وموسَى بن سَالم الخولاني، ويحيَى بن مضر الفَقيه، وأمثالهم من أهل العلم والدِّين، في سَبعة وسَبْعين رجُلا، فضُربَت أعناقُهم، وصُلِبُوا» انتهى بتصرف.

[«سير أعلام النبلاء» (255/8)]

□□□



درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ

﴿ «وغـزواتُ النَّبيِّ ﷺ وسَـرَاياه مضـبوطةٌ عند أهل العلم بالسِّـيرةِ والحديث، والله تعـالى كان يُبارِك لنبيِّه وأصـحابه في مغازيهـم، فمَـعَ العَمـل القَليـل يَظهرُ الإسـلامُ، وتفشُـو الدَّعوةُ ويدخُلـون في دين الله أفواجًا؛ ومجموعُ مَن قَتَلَ الصَّـحابةُ كلُّهم مـع النَّبـيِّ ﷺ لا يَبلُغون ألـفَ نفس، بل أقلَّ مِـن ذلكَ، ومع هذَا ببركة الإيمان فُتِحتْ أرضُ العَرب كلُّها في حياته».

[«جامع المسائل» تحقيق: عزير شمس (248/3)]

□□□

﴿ «وإنَّما الشُّيوخ الَّذين يَستَحقُّون أن يَكُونوا قدوةً مُتَّبَعين هُم الَّذيـن يدعون النَّاسَ إلى طريقِ الله، وهُو شـرعُ الله ودينُه الَّذي بُعِـثَ به رسـولُه محمَّد ﷺ، كمـا دلَّ على ذلكَ الكتابُ والسُّـنَّة وإجماع الأمَّة، ويَصـرفون الأموالَ في مَصـارفها الشَّـرعيَّة الَّتي يُحبُّها الله ورسـولُه، فيكونُون داعينَ إلى الله، مُنفِقين الأموالَ في سبيل الله».

[«جامع المسائل» تحقيق: عزير شمس (153/3)]

□□□

﴿ «أكـثَرَ النَّاس يعجزُون عن أفضَـل الأعمال؛ فلَو أُمروا بها لفَعلوهـا على وجـه لا ينتَفعون بـه أو ينتَفعون انتفَاعًـا مرجُوحًا؛ فيكـونُ في حقِّ أحَدٍ هؤُلاء العَمل الَّذي يُناسـبُه وينتَفع به أفضَـل لـه ممَّا ليسَ كذلـكَ؛ ولهذَا يكونُ الذِّكر لكَثير منَ النَّاس أفضَـل من قراءَة القُرآن؛ لأنَّ الذِّكرَ يورثُه الإيمان، والقُرآن يورثه العلمُ؛ والعلمُ بعدَ الإيمان».

[«مجموع الفتاوى» (237/24)]

□□□

﴿ «وكذلـكَ بيـانُ مَـن غلـطَ في رأي رآه في أمْـر الدِّين منَ المسائل العلميَّة والعَمليَّة؛ فهذَا إذَا تكَلَّم فيه الإنسانُ بعلم وعَدل، وقصَـدَ النَّصـيحَةَ، فالله تعالى يُثيبُه على ذلكَ، لا سيمَا إذَا كانَ المتكلَّـمُ فيه داعيًـا إلى بدعَة، فهذَا يجبُ بيانُ أمـرِه للنَّاس، فإنَّ دفعَ شرِّه عنهُم أعظَم مِن دفْع شَرِّ قاطِع الطَّريق».

[«منهاج السنة» (146/5)]

□□□

﴿ «وأمَّـا مـا أُحـدِثَ بعدَهـم - أي بعـد السَّـلف - مِـن تكلُّف القـراءة على ألحانِ الغناء، فهذا يُنْهَى عنه عند جمهورِ العُلماء؛ لأنَّه بدعةٌ، ولأنَّ ذلكَ فيه تشـبيه القُرآن بالغناء، ولأنَّ ذلكَ يُورثُ أن يَبقَى قلبُ القارئ مصـروفًا إلى وزن اللَّفظ بميزَان الغناء، لا يَتدبَّرُه ولا يَعقلُه، وأن يَبقَى المستَمعون يُصغُون إليه لأجل الصَّوت الملحَّـن كما يُصْـغَى إلى الغِناء، لا لأجلِ اسـتِماعِ القُـرآن وفهمِه وتدبُّرِه والانتفاع به».

[«جامع المسائل» تحقيق: عزير شمس (305.304/3)]

□□□

﴿ «ولا بدَّ منَ الثَّلاثَة: الصَّـلاة، والزَّكاة، والصَّـبر، لا تقُوم مصـلحَة المؤمنين إلَّا بذلكَ، في صَلاح نفُوسهم وإصلاح غَيْرهم، لا سيَما كلَّما قَويَت الفتنَةُ والمحنَةُ، فالحاجةُ إلى ذلكَ تكونُ أشدَّ؛ فالحاجةُ إلى السَّـماحة والصَّـبر عامَّةٌ لجميع بنـي آدَم لا تقُوم مصلحَةُ دينهم ولا دُنياهم إلَّا بهما.

ولهذَا فـإنَّ جميعَهم يتمادحُون بالشَّـجاعة والكَـرم حتَّى إنَّ ذلكَ عامَّة مَا يمدَحُ به الشُّـعراءُ ممدوحيهم في شعرهم، وكذلكَ يتذَامُّـون بالبُخل والجُبن؛ والقَضـايا الَّتي يتَّفقُ عليْهَا عُقَلاء بني آدَم لا تكـونُ إلَّا حَقًّـا كاتِّفاقِهم على مَدْح الصِّـدْقِ والعَدلِ، وذمِّ الكذِبِ والظُّلْم».

[«كتاب الاستقامة» (263/2)]



بريد القرّاء

❁ وصلتنا رسالة من الأخ الكريم عبد الله معيدري من ولاية تلمسان، نبَّه فيها على صورة تحتوي على نقوش وتماثيل، وقع هذا خطأ وسهوًا في العدد (35)، فسبحان من لا يضلُّ ولا ينسى.

وهذا منه إن دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على اهتمامه بالمجلَّة وحرصه على متابعة موضوعاتها، فجزاه الله خير الجزاء في الدُّنيا والآخرة.

□□□

❁ والشُّكر الجزيل موصول إلى الأخ المفضال بومدين منصوري من مدينة مغنية ولاية تلمسان، على مقاله الَّذي بيَّن فيه حقيقة فرقة القاديانيَّة الضَّالَّة، وكشف عن عقائدها الكفريَّة الباطلة، وحذَّر المسلمين من شرِّها وفسادها.

وفَّقه الله وبارك له في علمه وجهده.

□□□

❁ أمَّا الأخت وردِيَّة بلقاسم من بلديَّة عين الرَّحمة ولاية غليزان، فقد أرسلت إلينا مقالاً في حقيقة التَّوحيد وأهمِّيَّته وشدَّة الحاجة إليه، كما نبَّهت على أمور شركيَّة تنافيه وتضادُّه؛ كالسِّحر والشَّعوذة والكهانة ودعاء الموتى وإقامة الزَّردة والوعدة، ونحو ذلك ممَّا هو متفشٍّ في بعض الجهات.

فنشكرها كثيرًا على غيرتها على التَّوحيد، كما نشكرها على حسن ظنِّها بإخوانها القائمين على المجلَّة وغيرهم من المشايخ، والوقوف معهم ونصرتهم، بارك الله فيها، وجعلها من أهل العلم والإيمان.

□□□

❁ وللأخ الَّذي لم يذكر اسمه من مدينة المديَّة جزيل الشُّكر على خطابه المفعم بحبِّ المجلَّة والقائمين عليها والمشاركين فيها، والدُّعاء لهم بالتَّوفيق والسَّداد.

نسأل الله أن يجعلنا خيرًا ممَّا يظنُّون، كما نشكره كثيرًا على نصائحه الغالية في وجوب حماية التَّوحيد ومجاهدة المنحرفين عن الصِّراط المستقيم حفظًا للدِّين والسُّنَّة والأمن.

نسأل الله أن يوفِّقه ويحفظه، وأن يثبِّتنا وإيَّاه على الإسلام والسُّنَّة.

□□□

❁ وأُرسِلَت إلينا قصيدة لاميَّة خطَّتها يمين الأخ الكريم عبد الله رحيل إمامٌ بولاية تلمسان، عنوانها: «الدَّعوة إلى مكارم الأخلاق»، حثَّ فيها صاحبها على إصلاح النُّفوس والتَّحلِّي بحسن الخلق، جاء فيها:

فلنبتدئ أوَّلاً إصلاح أنفسنا
بالعود إلى الله عودَ التَّائب الوجل
والانقياد لدين الله مع سنن
للمصطفى كانقياد الأنيق الذُّلل
وأن نحسِّن أخلاق النُّفوس ولا
نألو لها جاهدين الصَّون عن خطل

فبارك الله في علمه وجهده وزاده توفيقًا وسدادًا.

□□□

❁ أمَّا الأخ المحبُّ الوفيُّ فريد القبائلي من ولاية تيزي وزو، فجزاه الله خيرًا على هديَّته لبيت مجلَّة الإصلاح، ونشكره على حسن ظنِّه بإخوانه القائمين على سير المجلَّة وإخراجها ودعائه لهم.

أمَّا عن اقتراحه لإعادة تنشيط موقع راية الإصلاح فقد وقع ذلك ـ قريبًا ـ بحمد الله تعالى.